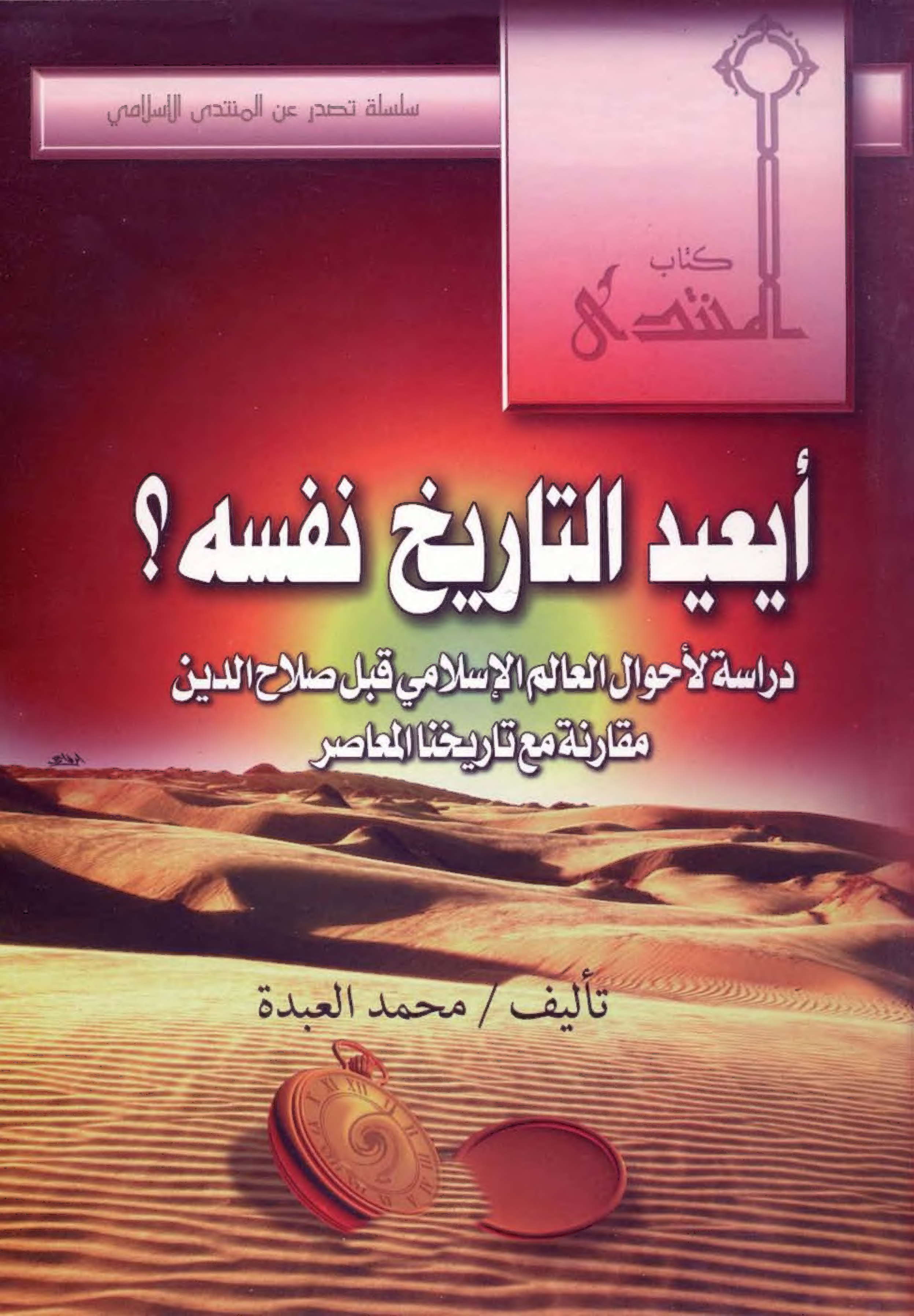

سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي
كتاب
المنتدى
أيعيد التاريخ نفسه؟
دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين
مقارنة مع تاريخنا المعاصر
تأليف / محمد العبدة

أيعيد التاريخ نفسه؟

دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين

مقارنة مع تاريخنا المعاصر

تأليف

محمد العبدة

الطبعة الثالثة

١٤١٩ هـ = ١٩٩٩م

«إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشَدُّ إليها الركائب والرحال، وهو ظاهرة لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق».

ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالدين القويم والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، **وبعد**:

فقد مضى زمنٌ على المسلمين ضعف فيهم الإحساس بأهمية التاريخ وما فيه من الفوائد والعبر، وأعرضوا عن قراءته قراءة واعية مستبصرة، مع أنه لأهميته البالغة فقد انتحله علماء السلف، واشتغلوا به كالإمام الطبري وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم.

وقد وردت في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى أهمية دراسة سير الأولين والتأمل فيها، وأخذ العبرة منها، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [يوسف: ١١١] وقال: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وجاءت السنة محذرة من الفتن التي ستأتي ومن التفرق والضعف حتى لا تقع الأمة الإسلامية فريسة للأمم الأخرى، وأعلمَ رسولُ الله ﷺ المسلمين بحوادث ستقع في المستقبل.

لقد زادت أهمية التاريخ في هذا العصر، عندما بدأ المسلمون بالتفكير في استعادة دورهم وأن يكون لهم وجود وشهود.

ومن خلال محاولات الاستفادة من الماضي يبرز السؤال المتكرر: **أيعيد التاريخ نفسه**؟ ويأتي الجواب بالنفي عند البعض، أو بالتأكيد عند آخرين؛ وهو على كل حال من العجلة التي لا تحمد، أو من التعميمات التي يأتي الجواب بها إيثاراً للراحة

عن ذكر التفاصيل أو التعمق في البحث.

والحقيقة أن التاريخ لا يعيد نفسه حذو المثال بالمثال زماناً ومكاناً؛ فإن هذا ليس من طبيعة الأمور وسنن الكون الربانية ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فالصور لا تتطابق ولكن تتشابه، والوقائع لا تتكرر ولكن طبيعة العقل البشري وتركيبة الإنسان التي خلقه الله عليها تتشابه كثيراً، مما يجعله يتصرف التصرفات نفسها أحياناً مع اختلاف الزمان والمكان ويفكر بالطريقة نفسها.

وفي كل عصر نجد المغالين في الدين والمقصرين فيه، وفي كل عصر يظهر من يقدس العقل ويرفعه فوق النص. والاستبداد في كل عصر هو هو ولكن أساليب الاستبداد تختلف، وقد ضرب الله مثلاً لذلك (فرعون) الذي يمثل التكبر والاستخفاف بالشعوب.

ويتكرر الترف والبطر، ولكن أساليب الترف تختلف حسب درجة التحضر والتمدن، ويمثل (قارون) هذا الوجه البشع للرأسمالية.

ومن يقرأ وصف المؤرخين المسلمين لملك الإنكليز في الحروب الصليبية يظن أنهم يصفون أحد ساسة الإنكليز في هذا العصر، وما فعله الإنكليز قبل قرن في مصر والسودان يفعله الغرب اليوم «بعد إخفاق الإنكليز والمصريين في السودان ومقتل (غوردون) باشا، أشار الإنكليز على مصر (والإشارة هنا بمقام الأمر) أن تتخلى عن السودان وتتركه وشانه، ولم يكن ذلك إلا توطئة لفتوحهم هم للسودان فإنهم ما لبثوا أن جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط إنكليز رئيسهم الجنرال (كتشنر) فاستفتحوا السودان برجال مصر، وعادوا يقولون للمصريين: إن السودان مشترك بيننا وبينكم ...» [(١)]. ويقول المؤرخ الغربي (اشبنجلر): «إنه ثمة تناظر

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ٢/١٩٦.

غريب بين أثينا وباريس، وبين أرسطو وكانط، بين النزعة العالمية بعد فتوح الإسكندر وبين الاستعمار الاوروبي»[١].

إن مذهب الإباحية والاشتراكية يتردد في كل عصر ولكن بأسماء مختلفة «فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء»[٢] «وفهم التطور السابق لمشكلة جارية سيجعل المرء قادراً على أن يفهم ملابساتها الحاضرة»[٣] وكما يتوقف فهم الحاضر بالرجوع للماضي، يتوقف فهم الماضي أحياناً على معرفة الحاضر. وكل هذا يجعلنا نقول: نعم يعيد التاريخ نفسه ولكن بصور أخرى، وألوان أخرى؛ ولذلك ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء، وقصص الطغاة المتجبرين وأسباب هلاك الأمم؛ لأنها ستعاد وتكرر في تاريخ الإنسانية «ولا يكون الاعتبار إلا إذا قسنا أواخر الأمم بأوائلها فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر من المتأخرين شبه بما كان من المتقدمين، وذكر في غير موضع أن سنته في ذلك سنة مطردة ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].[٤].

إن إدراك ما قام به الباطنيون سابقاً يجعلنا نتفهم مؤامراتهم في العصر الحديث، وعندما يكون النموذج واضحاً، ويعلم المسلم سنن الله في التغيير، فهذا يغنيه عن كثرة التجارب التي قد لا يفي بها عمره القصير.

إن الفترة التي سنكتب عنها – إن شاء الله – هي صورة عن القرن الرابع الهجري وما تلاه حتى مجيء صلاح الدين الأيوبي: كيف حدث التغيير؟ ومن أين بدأ؟

---

(١) د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ /٢٥٢ ومصطلح (النزعة العالمية) ما هو إلا ستار للمركزية الأوربية.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ١ /٢٩٢.

(٣) لويس جوبتشك: كيف نفهم التاريخ /٢٠١.

(٤) ابن تيمية: الفتاوى ٢٨ /٤٢٥.

فمثل نور الدين وصلاح الدين لا يأتيان فجأة دون تمهيدات وإرهاصات، وما كان واقعاً في ذلك العصر وما تم بعده من تغيير يشبه من بعض الوجوه ما نحن فيه الآن، وسنرى كيف بدأت الإفاقة، وكيف خَبَتْ قليلاً ثم ظهرت بشكل أقوى، ومن الطبيعي أن تستغرق وقتاً أطول مما يتصور؛ لأن النظم السياسية والاقتصادية التي استقرت من قبل كانت من الرسوخ لدرجة تحتاج فيها إلى جرعات قوية لإزاحتها، ومع ذلك فلم تزحزح تماماً، واستمرت بعد هذين الملكين العادلين، ولكن محاولات الإصلاح والتجديد لم تنقطع سواء كان ذلك عن طريق العلماء أو الأمراء، وقد بدأت بوادر يقظة في العصر الحديث ولكنها بطيئة تحمل أثقال وأعباء القرون السابقة، ولعلها توفق بإذن الله إلى التغيير المنشود والإصلاح المرجو وما ذلك على الله بعزيز، والله ولي التوفيق.

المؤلف

الفصل الأول

الأحوال العامة للمسلمين

قبل الهجوم الصليبي

١ ـ الخلافة في بغداد والتمزق الداخلي.

٢ ـ ونموذج من الخراب الاقتصادي.

٣ ـ العلماء والسياسة.

٤ ـ الباطنيون والإرهاب الداخلي.

٥ ـ التجاوب الضعيف.

إذا أردنا رسم صورة لحالة المسلمين السياسية[١] منذ بداية القرن الرابع وحتى منتصف القرن الخامس الهجريين فسنجد حالة مزرية من الضعف والتشرذم الذي عمّ العالم الإسلامي يومها، هذا العالم الذي تحول إلى فسيفساء من الدول الصغيرة المتغالية المتناحرة، فقد سيطرت الأنانيات سيطرة تامة، ولغة الغريزة هي التي تتكلم والمحافظة على كرسي الحكم هو الغاية ولو أدى ذلك إلى طلب المعونة من الكفار، أو ذهاب البلد للأعداء، ولم تتحرك الهمم للتعاون فيما بينهم للمصلحة العامة فضلاً عن أن تتحرك للوحدة مرة ثانية.

وقد ابتُلي المسلمون في هذه الفترة بالحركات الباطنية التي اتخذت من التشيع ستاراً لها تخدع به العوام والطغام، وتنفذ منه للطعن في الإسلام نفسه، وقد قال كثير من المؤرخين والعلماء الذين كتبوا عن الفرق إن الحركات الباطنية ما هي إلا ردة فعل فارسية تجاه الفتح العربي الإسلامي، وأنهم عندما أخفقو عسكرياً وثبتت أقدام الفاتحين، ورأوا أن هذا أمر لا مردّ له، عندئذ قاموا بمحاولة الهدم من الداخل، وقد علموا أن الدعوة لآل البيت والتظاهر بحبهم وتعظيمهم تجد آذاناً صاغية وتدغدغ عواطف المسلمين[٢] وكثير من عوام السنة فيهم براءة وغفلة أحياناً فيُخدَعون من هذا الجانب.

استغلت الحركات الباطنية هذا الوضع السيئ ونشطت في نشر مبادئها بشكل

---

(١) كانت الحالة العلمية أفضل بكثير من الحالة السياسية فهناك علماء كبار حافظوا على السنة وحفظوا العلم من الضياع وكان لهم تلامذة استمر بهم نشر العلم وتبليغه، ولكن الضعف السياسي سيؤثر على العلماء أيضاً، فالإمام الجويني يفر إلى مكة، وكثير من علماء المغرب قتلوا على أيدي العبيديين كما سنفصل إن شاء الله.

(٢) إن آل البيت المتبعين للرسول ﷺ لهم مكانتهم، ولكن دون غلو فيهم ولا تقصير؛ للنصوص الشرعية الواردة بذلك.

سري وعلني متخذة من التشيع ستاراً لها، ثم ينقلون أتباعهم بعدئذ شيئاً فشيئاً إلى التحلل الكامل من الدين. ولم يُبْتَلَ المسلمون في كل عصورهم بأشد مما ابتلوا بهؤلاء الذين أضعفوا الخلافة بكثرة خروجهم في الداخل ومساعدتهم للأعداء في الخارج، كتعاونهم مع التتار والصليبيين، كما زرعوا الرعب في قلوب الناس بلجوئهم إلى أسلوب الاغتيالات الفردية، ونجحوا في ذلك نجاحاً مؤقتاً. فهم كاليهود كلما تنمروا وأفسدوا في الأرض هيأ الله لهم من يسومهم سوء العذاب، ولكنهم لا يرتدعون ولا يعتبرون: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾.

[المائدة: ٦٤]

إن قوة أهل السنة تكمن في الحق الذي معهم، وهم منصورون بإذن الله إذا اجتمعوا واتحدوا وأخذوا بالأسباب الشرعية، وربما يميل بعض الناس إلى الرأي الذي يقول: إن كثرة الدول في ذاك العصر تنطوي على شيء من الإيجابيات؛ لأنها دول ناشئة فتية، والحقيقة أنها - بغض النظر عن عقائدها - لم تغن شيئاً في النواحي العسكرية والسياسية إلا ما قام به الحمدانيون في صد الروم وغزوهم وكانت فترة محدودة بعصر سيف الدولة الحمداني وبعد وفاته عادت الأمور على ما كانت عليه من التناحر، أما البويهيون والعبيديون فإنهم استعملوا قوتهم الفتية في التسلط على المسلمين ولم يستعملوها للدفاع عنهم فضلاً عن ضم ممتلكات جديدة للدولة الإسلامية، وما يقال عن حبهم للعلم وتشجيعهم للعلماء أو الأدباء وجمعهم للكتب، فهذا لا يساوي شيئاً أمام ظلمهم وقتلهم لعلماء السنة وتعصبهم لمذهبهم[١]، وأما القرامطة فحدِّث عن فسادهم ولا حرج، فهم أسوأ خلق الله

---

(١) ذكر الأستاذ أحمد أمين في (ظهر الإسلام) أن هذه التجزئة وهذه الدويلات فيها خير أكثر من بقائها تحت راية الدولة العباسية، وهو يقصد من الناحية العلمية والاقتصادية، وهذا ليس بصواب، فتوحد الأمة هو خير لها مع المستقبل، والعلم ينتشر عندما تتاح له الحرية والتشجيع.

اعتقاداً وعملاً .

وإننا في وصفنا لحالة العالم الإسلامي لا نستعرض تاريخاً محضاً بقدر ما هو ربط الماضي بالحاضر واستشراف للمستقبل، وشيء آخر: أنه عندما نتكلم عن هذا العصر فإنما نعني ما غلب عليه، وإلا فقد وجد من الوزراء مَنْ فيه قوة وخير كالوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح الذي كان محدثاً إماماً، قام بشؤون الوزارة في عهد المقتدر العباسي والقاهر، وسمع من العلماء، وينطوي على دين متين وعلم وفضل، وكان مجلسه موفوراً بالعلماء، قال الصولي: «لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، وكان يجلس للمظالم وينصف الناس، توفي بمكة ٣٣٤هـ[١]. ومنهم الوزير ابن هبيرة يحيى بن محمد، مصنف كتاب (الإفصاح) قرأ القرآن وسمع الحديث، كانت له معرفة جيدة بالنحو تفقه على مذهب الإمام أحمد، وهو من خيار الوزراء، وزر للخليفة المقتفي، توفي سنة ٥٦٠هـ[٢].

كما أن كثرة العلماء في هذا العصر حفظت المسلمين من الضياع، وإن كان المطلوب منهم أكثر من ذلك.

---

(١) الذهبي/ سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٩٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩.

(١)

الخلافة في بغداد والتمـزق الداخلـي

قال ابن كثير يصف أحوال الخلافة العباسية عام ٣٢٤هـ:

« وَهَىٰ أمر الخلافة جداً، واستقل نواب الأطراف، ولم يبق للخليفة حكمٌ في غير بغداد، وأما بقية الأطراف فالبصرة مع ابن رائق، وخوزستان إلى أبي عبد الله البريدي، وأمر فارس إلى عماد الدولة ابن بويه، وكرمان مع أبي علي بن محمد بن إلياس بن إليسع، وبلاد الموصل والجزيرة وديار بكر ومضر وربيعة مع بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، وبلاد أفريقية (تونس) والمغرب في يد القائم ابن المهدي الفاطمي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر الساماني والبحرين وهجر واليمامة في يد أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي[١] .

هكذا كان التمزق والتفرق .

وأظن أن الخلافة وصلت إلى أضعف مما وصفه ابن كثير، فسلطة الخليفة لم تتعد أحياناً أبواب قصره الذي يسكن فيه، كان ضعفاً عجيباً؛ فالخلفاء في بغداد ألعوبه بأيدي الخدم والمماليك الذين سرعان ما يترقون إلى أمراء للجند، ولا أدري هل كان هؤلاء يشعرون بهذا الضعف؛ ولكنهم يرون أن بقاءهم ـ على ما فيه من سوء الحال ـ هو خير من ابتعادهم؟ أم أن حب المنصب وما وراءه من دعة وترف

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ١٩٧ .

يصل إلى حد قبول الذل[١] . فالخليفة محمد بن أحمد الملقب بالقاهر بالله بعد أن عُزل لم يبق معه شيء من ملابسه سوى قطعة عباءة يلتف بها، وفي رجله (قبقاب) خشبي، ويدور على المساجد يسأل الناس[٢] ، والخليفة ابن المعتز يهرب بعد إخفاقه في محاولة انقلابية فيختفي عند أحد الوجهاء في بغداد (ابن الجصاص) ثم يعثر عليه فيقتل بطريقة وحشية عجيبة (عَصْر خصيتيه) ويلف بكساء ويسلم إلى أهله[٣] ، والخليفة المستكفي (ت ٣٣٤) يعطى راتباً قدره (٥٠٠٠) درهم من قِبَلِ المتسلط أحمد بن بويه، ثم يعزل بعد أن يُجَرَّ من عمامته وتسمل عيناه[٤] ويسجن حتى الموت . وفي عهد المطيع لله أصبح الأمر كله لمعز الدولة البويهي، حيث تحولت الوظائف الكبرى في الدولة كالقضاء والشرطة والحسبة إلى أن تشترى وتباع (أسلوب الضمان) .

وفي ترجمة الخليفة (المقتدر) : « بويع وعمره ثلاث عشرة سنة، وانخرم نظام الخلافة في أيامه وصغر، وقد خلع في أوائل دولته وبايعوا ابن المعتز، ولم يتم ذلك، ثم خلع ثانياً (المقتدر) وبايعوا القاهر ثم أعيد المقتدر، ثم قتل في المرة الثالثة، وكان مبذراً أنفق الخزائن ثم احتاج الأموال لنفقات جنده فلم يجد فذبحوه[٥] .

وفي ترجمة الخليفة محمد بن المقتدر (الراضي بالله) قال أبو بكر الخطيب : له فضائل منها أنه آخر خليفة خطب يوم الجمعة، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش، وكان سمحاً جواداً محباً للعلماء، توفي ٣٢٩ »[٦] .

---

(١) أما التاريخ الحديث فينبئنا أن حب الرئاسة وصل إلى درجة تذبح فيها الأوطان وتهان الشعوب كي تبقى الرئاسة ويبقى الرئيس، كما وجد من يعيش ذليلاً مهاناً من قبل الغرب والشرق ولكنه متكبر على شعبه وأمته يتظاهر بالعظمة، ويأبى الله إلا أن يذل أعداءه .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ٢٢٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٨ / ١٨ .

(٤) من العادات الإجرامية أن تسمل عين المعزول – أي تُفقأ – فيصبح أعمى، ويقال إن هؤلاء الأتراك أخذوها عن الروم .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٥ / ٤٣ .

(٦) المصدر السابق ١٥ / ١٠٤ .

إن الانقلابات الكثيرة في هذا العصر تذكرنا بالواقع العربي المعاصر وضباطه الذين اشتهروا بهذه الصناعة ولم يغادروا إلا بعد أن تركوا البلاد خراباً في كل شيء.

ونعود إلى الأمثلة من الماضي، فعندما ظفر القاهر بالله بمعارضيه: مؤنس القائد، وعلي بن بليق الوزير، حبسهما، ثم دخل عليهما فذبحهما، وحملت الرؤوس إلى الخزانة كما جرت العادة[١]؟!

وفي ترجمة المتقي لله إبراهيم بن المقتدر قال: «تولى والأمور مدبرة وفتنة ابن رائق والبريدي أدت إلى نهب دار الخلافة وهرب المتقي وابنه إلى الموصل وحكم البريدي بغداد، ثم جاء سيف الدولة الحمداني إلى واسط فانهزم البريدي، ثم دخل توزون بغداد وعينه الخليفة: (أمير الأمراء) واضطر الخليفة للخروج من بغداد طالباً المساعدة من أخشيد مصر، فنصحه الأخير بترك بغداد والمجيء إلى الشام أو مصر، ولكن الخليفة رفض هذا العرض ورجع إلى بغداد، وبمجرد وصوله قام القائد التركي (توزون) بانقلاب عليه وسمل عينيه. قال ابن كثير: «وفي هذه السنة (٣٣١هـ) كثر الرفض ببغداد فنودي بها: من ذكر أحداً من الصحابة بسوء فقد برئت منه الذمة»[٢].

هذا التقهقر لم يكن مقصوراً على بغداد بل كان عاماً، فالأنانية والمصلحة الشخصية هي الغالبة ولو أدى ذلك إلى فساد البلاد وخراب الاقتصاد. وتسجل حوادث ٣٣٢هـ أن أبا عبد الله البريدي قتل أخاه أبا يوسف كي يظفر بماله[٣]، وعمد الحسين بن عمران بن شاهين صاحب (البطيحة) لقتل أخيه غيلة.

---

(١) الكامل ٨/ ٢٦١.

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٢١٨.

(٣) البداية والنهاية ١١/ ٢٢١.

وفي عام ٤٠٣هـ تآمر (منوجهر) مع أصحابه على قتل والده قابوس بن وشمكير صاحب جرجان حتى يصفو الأمر للابن[١]، وفي عام ٤٨٧هـ قتل السلطان بركيارق عمّه (تكش) وغرَّقه وَقَتَلَ ولَده معه[٢]. ومن الرزايا التي تدل على ضعف العقل أن هذا السلطان عندما حضرته الوفاة عهد إلى ولده الصغير (ملكشاه) وعمره أربع سنوات مع وجود أخيه السلطان محمد الذي قاتله على الملك سنوات فكيف لا يترك الأمر لأخيه الذي يملك الجيوش ويملك السلطة فعلاً، وقد خُطب لهذا الصغير في بغداد، ثم جاء السلطان محمد فخطب للصغير في الجانب الشرقي وللسلطان محمد في الجانب الغربي!![٣].

ومن الأمثلة على الأنانية المفرطة ولو أدى ذلك إلى ضعف المسلمين وتقوية العدو أن ملك دمشق معين الدين آنر استجار بملك الموصل سيف الدين غازي لمساعدته على الصليبيين، فقال له الملك غازي: أخشى من الغدر: تُسَلِّم لي دمشق حتى أكون في مأمن، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنا لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها، ولكن (آنر) لم يطمئن ولم يسمح له بدخول دمشق[٤]، وآثر أن يبقى ضعيفاً على أن يساعده ملك مسلم.

وكان أمير (الحلة) دبيس بن صدقة الأسدي قد أفسد في الأرض فطلبه الخليفة العباسي ففر منه ملتحقاً بالروم الذين كانوا يحاصرون حلب، فساعدهم دبيس على محاصرتها طمعاً في أخذها منهم، ولكن الله سلم ولم يظفروا بها[٥]، وخاب أمل دبيس وبدأ يتنقل من مكان إلى مكان خوفاً من الخليفة.

---

(١) الكامل ٩/ ٢٣٩.
(٢) الكامل ١٠/ ٢٣٩.
(٣) الكامل ١٠/ ٣٨٦.
(٤) الكامل ١١/ ١٣٠.
(٥) الكامل ١٠/ ٦١٠.

ورضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب قتل أخويه واستعان بالباطنية، كل ذلك حرصاً على المُلك[1]، ومدينة الرها يتقاسمها أميران: ابن عطير، ونصر الدولة بن مروان، فما كان من ابن عطير إلا أن راسل ملك الروم (أرمانوس) وباعه حصته بعشرين ألف دينار!! فدخل الروم البلد وملكوه وقتلوا المسلمين وخربوا المساجد[2].

وفي حوادث ٤٢٦هـ: جمع ابن وثّاب النميري جمعاً كثيراً من العرب (البدو) وغيرهم، واستنجد بمن بالرها من الروم، وقصد بلد نصر بن مروان ونهب وأخرب[3]، فهؤلاء كما قال عنهم أبو العلاء المعري:

يَسُوسون الأنامَ بغير عقلٍ　　　فينفذُ أمرُهم ويُقال ساسه

وقد وصل هذا المرض إلى الأندلس، فكأنه الوباء الذي يجتاح الأقطار «فقد تملك رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً أربعةٌ كلهم يتسمى أمير المؤمنين، فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة[4]. وفي زحمة الفتن والهرج في قرطبة، قام أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وتسوّر القصر ودعا إلى نفسه، فقال له بعض أهل قرطبة: نخشى عليك أن تقتل في هذه الفتنة، فإن السعادة قد ولّت عنكم، فقال: «بايعوني اليوم واقتلوني غداً[5]» وفي محاولة لبعض أمراء السلاجقة في رد عادية الصليبيين لم يتمكنوا من النصر؛ ولكن عند رجوعهم تتبعهم أمير ماردين للنهب والسلب!![6]، ووزير الفاطميين (شاور) يستجير

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ٤٤٩.

(٢) المصدر السابق ٩/ ٤١٣.

(٣) الكامل ٩/ ٤٤٣.

(٤) الكامل ٩/ ٢٨٢.

(٥) الكامل ٩/ ٢٨٣.

(٦) المصدر السابق ١٠/ ٤٨٥.

بالصليبيين ويطلب مساعدتهم خوفاً على منصبه أن يذهب لو أصبحت مصر بيد السلطان نور الدين محمود .

وبسبب هذا التمزق الداخلي طمع الأعداء من الخارج واستطاعوا الدخول للأقطار المجاورة، ولا أحد يمنعهم. جاء في حوادث ٣٥١هـ: هاجم الروم بلدة (عين زَرْبه) واستولوا عليها وجمع قائدهم (الدمستق) المسلمين في المسجد الجامع، ومن تخلف عن المسجد قتلوه، ثم أمر من في المسجد بالرحيل حيث شاؤوا، فهاموا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون، وأقام الدمستق في عين زربة واحداً وعشرين يوماً، واستولى على حصون كثيرة حولها(١) وفي هذه السنة استولى الروم على حلب، ولم يتهيأ سيف الدولة للدفاع فانهزم عنهم، فأخذوا البلد وأسروا وقتلوا وغنموا أموالاً كثيرة منها أموال سيف الدولة وخزائنه وأسلحته، ورجعوا إلى بلادهم(٢) .

وفي سنة ٣٥٣هـ عاد الروم وحاصروا (المصّيصة) وقاتلوا أهلها وأحرقوا أراضيها ورجعوا(٣) .

وفي سنة ٣٥٨هـ دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله، وسار إلى طرابلس وأحرق البلد، ثم إلى حمص، ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتخريباً، وكان بحلب (قرعوية) غلام سيف الدولة، وقد صانع الروم(٤) .

وفي سنة ٣٥٩هـ تملك الروم مدينة أنطاكية بمساعدة النصارى من جيرانهم وأخرجوا أهلها من الأطفال والعجائز والمشايخ وأسروا الشباب والنساء(٥) .

---

(١) المصدر السابق ٨/٥٣٨ .

(٢) الكامل ٨/٥٤٠ .

(٣) الكامل ٨/٥٥٢ .

(٤) معنى هذا أنه تولاهم؛ وأعطاهم الأمان من جانبه .

(٥) الكامل ٨/٦٠٣ .

ماذا كانت ردة الفعل عند الدول المجاورة؟ لا شيء، لم يحرّكوا ساكناً، كما هو حالنا الآن عندما تضرب إسرائيل أي بلد عربي تستطيع أسلحتها أن تصل إليه، بينما بقية البلدان العربي مشغولة بنفسها، لا يهمها أمر الأمة بشيء، وأما طلب المساعدة من الكفار فهو عين ما يفعله بعض الحكام الآن، الذين يفضلون اتباع الغرب أو الشرق على أن تكون العلاقات مع جيرانه مبنية على التفاهم أو التعاون هؤلاء الحكام كتبوا لأنفسهم تاريخاً ولكنه تاريخ مظلم لا يشرفهم ولا يشرف الأمة التي سكتت عنهم.

* * *

(٢)

ونموذج من الخراب الاقتصادي

عندما تصل الدول إلى مستوى منحط متدهور من القيم الأخلاقية والسياسية تبدأ غرائز الجمع والجشع تظهر وبشكل مفرط؛ فيصبح تكديس الأموال والنهب من خزانة الدولة وكأنه هواية طريفة، وتتجمع الأموال بيد حفنة قليلة لا تعرف التحليل والتحريم، بل لا تعرف دنيا ولا آخره؛ لأنهم حتى في الدنيا كثيراً ما يخسرون، وتصادر أملاكهم ويعيشون بقية حياتهم في ذل وشظف من العيش، وتذهب أنفسهم حسرات، إنها القصة نفسها تتكرر الآن في الوطن العربي أو فيما يسمى (العالم الثالث) قصة (القطط السمان) الذين ينهبون أموال الشعوب ويتركون البلاد قاعاً صفصفاً، لا يشعرون بتانيب ضمير ولا حس إنساني، ولكنهم يختلفون عن سابقيهم في أنهم يُهرّبون أموالهم إلى بنوك سويسرا وأمريكا.

جاء في ترجمة (سبكتكين) الحاجب التركي مولى معز الدولة البويهي «وقد ترك من الأموال شيئاً كثيراً جداً، من ذلك ألف ألف دينار (مليون) وصندوقاً من الجوهر»[١]. وجاء في وصف أموال الأفضل ابن أمير الجيوش الأرمني وهو وزير الفاطميين في مصر: «ترك من الذهب والثياب والرقيق والخيل والمسك ما لا يعلم قدره إلا الله»[٢].

وقد أنشأ عضد الدولة البويهي بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه

(١) البداية والنهاية ١١ / ٣٠١.

(٢) البداية والنهاية ١٢ / ٢٠٢.

خمسة آلاف ألف درهم (خمسة ملايين)[1]، والوزير ابن الفرات لا يأكل إلا في ملاعق البلور، ووجد عند الوزير ابن كلس من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد عنده من الجوهر ما قيمته أربعمائه ألف دينار[2].

ويصف ابن كثير جهاز زواج ابنة السلطان ملكشاه عام ٤٨٠هـ فيقول: «في المحرم منها نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي غالبها أواني الذهب والفضة وعلى أربع وسبعين بغلة مجللة بالديباج الملكي ... الخ»[3].

وقد يُظَنُّ أن الأمر بخير ورفاهية عندما تسمع هذه الأرقام، ولكن الحقيقة أن أكثر الأمة كانت تعيش حياة صعبة، لقد أرهقوهم بالضرائب، وسلطوا الجيش عليهم. جاء في حوادث ٣٣١هـ: «وفيها غلت الأسعار حتى أكل الناس الكلاب ووقع البلاء في الناس»[4].

وجاء في حوادث ٣٦١هـ: وظهر العيَّارون وأظهروا الفساد وأخذوا أموال الناس وأُحرقت الدور، واحترقت محلة الكرخ وهي معدن التجار[5]. وفي حوادث ٣٧٦ كان الغلاء شديداً بالعراق، وجلا أكثر الناس. كما يذكر الغلاء في السنوات ٣٨٣، ٣٩٧، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٤هـ ومع الغلاء العيارون والمفسدون.

وفي عام ٤٤٨هـ انقطعت الطرق لخوف النهب، فغلت الأسعار، وأكل الناس الميتة، واستغل التجار هذه الأوضاع فاحتكروا المواد الغذائية وباعوها في الأزمات،

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٣٨.
(٢) وفيات الأعيان ٧ / ٣٣.
(٣) البداية والنهاية ج١٢ / ١٤١.
(٤) البداية والنهاية ٦ / ٢١٩.
(٥) الكامل ٨ / ٦١٩.

فقد باع رجل داراً بالقاهرة بعشرين رطل دقيق وكان قد اشتراها من قبل بتسعمائة دينار، وبيعت البيضة بدينار[١]. وكثرت المصادرات للأغنياء والوزراء فعندما توفي عفان بن سليمان أكبر تجار مصر في زمانه أخذ الأخشيد من تركته مئة ألف دينار، وشاع عند الناس، «من هلك فلسيف الدولة ما ملك»[٢].

وكانت عساكر السلاطين تعبث فساداً في أموال الناس وخاصة أهل القرى الفلاحين فيأكلون من مزارعهم ولا يتجرأ أحد على ردهم؛ هذا بينما كان الوزير المهلبي «يُبتاع له في ثلاثة أيام وردٌ بألف دينار، فرشّ به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة»[٣].

هذه حال الوزراء بينما نجد أن الفقيه المالكي القاضي عبد الوهاب التغلبي يغادر بغداد متأسفاً عليها ويقول لمودعيه: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ زمنية، وفي ذلك يقول:

سلام على بغداد في كل موطن	وحقّ لها مني سـلام مضاعف
فوالله ما فارقتهـا عن قِلًى لها	وإني بشطـيْ جانبيهـا لعارف
ولكنهـا ضاقت عليَّ بأسـرها	ولم تكنِ الأرزاق فيها تُساعِف[٤]

ويقول أيضاً:

بغداد دار لأهـل المال طيـبة	وللمفاليـس دار الضَّنْك والضِّيق
ظللت حيرانَ أمشـي في أزقَّتها	كأنني مصحف في بيت زنديق[٥]

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢ / ١٧ .
(٢) ضحى الإسلام ٢ / ٩ .
(٣) المصدر السابق ١ / ١٠٤ .
(٤) وفيات الأعيان ٣ / ٢٢٠ .
(٥) وفيات الأعيان ٣ / ٢٢١ .

قال عنه ابن بسام في (الذخيرة) : كان بقية الناس، ولسان أصحاب القياس .

والأديب أبو علي القالي ضاقت به الحال فاضطر أن يبيع كتبه ويرحل إلى الأندلس، وقد باع نسخته من كتاب (الجمهرة) وكان كَلِفاً بها، فاشتراها الشريف المرتضى فوجد عليها بخط أبي علي:

أنست بها عشريـن حولاً وبعتها فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعهـــا ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبـــية صغار عليهم تستهل جفوني[1]

وقد يتعجب الإنسان لهذا التشابه بين الماضي والحاضر، ولكن يبقى هناك فرق واضح وهو أن بعض الحكام في الماضي كانوا يؤوبون إلى الحق إذا ذُكّروا ونُصحوا، واليوم لا ينفع فيهم التذكير ولا التشهير. جاء في البداية والنهاية: «وفي يوم الجمعة جلس ابن العبادي الواعظ فتكلم والسلطان مسعود السلجوقي حاضر، وكان قد وضع على الناس في البيع مكساً فاحشاً[2] فقال العبادي: يا سلطان أنت تُطْلِقُ في بعض الأحيان للمغني إذا طربتَ قريباً مما وضعت على المسلمين من هذا المكس، فهبْني مغنياً وقد طربتَ، فهبْ لي هذا المكس شكراً لنعم الله عليك، فأشار السلطان بيده أن قد فعلت، فضج الناس بالدعاء له»[3].

الا يذكرنا هذا بما يغدقه الحكام والأغنياء اليوم على المطربين والمطربات لتذهب أموال الأمة في طرق الفساد ثم تذهب بعدئذ لأعداء الله؛ بينما نرى الشعب لا يحصل على لقمة العيش إلا بشق الأنفس؟!

لقد بلغ الفساد الاقتصادي قمته عندما أقرت الدولة مبدأ الضمان وهو إعطاء

(١) ضحى الإسلام ١ / ١١٨ .
(٢) أي ضريبة .
(٣) البداية والنهاية ١٢ / ٢٣٧ .

الحق لبعض الأفراد بجمع الخراج من مدينة أو منطقة بكاملها لقاء مبلغ يؤدونه سلفاً للدولة، ولهم الفرق بين ما يجمعونه وبين ما يؤدونه، ويتولى الضامن جباية الخراج بمساعدة السلطة، أو بدون ذلك أحياناً، ولكن حساباته كانت تخضع لتدقيق الحكومة، وطبيعي في مثل هذه الأحوال أن الضامن يهمه جمع أقصى ما يمكن من أموال الفلاحين ولو كان ذلك بالوسائل القمعية، بما يفوق طاقتهم على التحمل، كما يحاول تأدية أقل ما يمكن للدولة مما يؤدي إلى إضعافها. وهكذا نقرأ في (الكامل): «وضمن واسطاً أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة أبو سعيد سابور بن المظفر»[١]، بل ازداد الأمر سوءاً عندما ابتدع البويهيون الإقطاع العسكري فلا يعطون أمراء الجند ولا الجنود رواتبهم من خزينة الدولة بل يعطونهم أرضاً يستغلها الجندي مقابل خدماته. وطبيعي أن الجندي لا يشتغل في الزراعة، بل يكون عنده فلاحون، فإذا لم تعجبه الأرض أخذ غيرها بالقوة[٢] فيضطر الفلاح المسكين أن يترك أرضه، وتتحول الأرض الزراعية إلى أرضٍ بور لا يُعْمَلُ فيها، ويقلُّ الإنتاج بشكل عام. وبدعة أخرى شنيعة وقعت زمن البويهيين فقد تولى القضاء سنة ٣٥٠هـ أبو العباس بن عبد الله بن أبي الشوارب وضمن أن يؤدي كل سنة مائتي ألف درهم، وهو أول من ضمن القضاء ولم يُعْهَدْ هذا من قبل، وقد استنكر الخليفة العباسي المطيع لله هذه الحادثة فلم يأذن لهذا القاضي بالدخول عليه، وبعد أن فتح هذا القاضي باب الضمان، ضمنت الحسبة والشرطة في بغداد[٣].

كل هذا من أكبر أسباب خراب العمران وضعف الدول وقد كانت خطورة هذا

---

(١) الكامل ١٠ / ٨.

(٢) انظر مجلة (الاجتهاد) العدد الأول الصادر عن دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة بيروت، ففيها بحث موسع عن الإقطاع العسكري عند البويهيين.

(٣) الكامل ٨ / ٥٣٦.

الموضوع واضحة لدى المؤرخ ابن خلدون حين يقول في المقدمة: «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، فإذا قعد الناس عن المعاش كسدت أسواق العمران، وخفّ ساكن القطر وخربت أمصاره»[١]، ويتابع ابن خلدون هذا الموضوع المهم فيقول: «ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعمّ من ذلك. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغُصَّاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران[٢].
ويقول أيضاً وكأنه يتكلم عن الواقع الآن: «وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلُّطُ على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه»[٣].

ويعلل ابن خلدون تعليلاً دقيقاً للأسباب المهمة التي تجعل هذه الدول تنهب أموال الناس، أو تصادر أموال الأغنياء أو الوزراء، فيقول: «واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف فتكثر نفقاتهم ولا يكفي الدخل على القوانين المعتادة فيوسعون الجباية، ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمها[٤].

---

(١) المقدمة ٢ / ٧٤١.
(٢) المقدمة ٢ / ٧٤٣.
(٣) المقدمة ٢ / ٧٤٦، وقارن هذا بما تفعله الدول الاشتراكية العربية من أخذ محاصيل القمح والقطن والفواكه من الناس بأبخس الأثمان لتبيعها للناس مرة ثانية أو للدول الأخرى بأرفع الأثمان، وذلك للحصول على (العملة الصعبة) كما يدعون، فكسدت زراعة القمح والقطن.
(٤) المقدمة ٢ / ٧٤٨.

(٣)

العلماء والسياسة

في هذه الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي والتغلب الرافضي، كان العلماء من أهل السنة قائمين على نشر العلم وتربية التلاميذ، وكانت المساجد غاصة بحلَقِ العلم كالحديث والفقه واللغة، كما ازدهرت علوم الطب والهندسة والفلك، وهكذا بقي العلم صحيح المنهج، سليم الوجهة، ولقد ظل قروناً وهو بهذه النضارة يؤدي رسالته المزدوجة في ترقية الجماهير وإلانة شكيمة الحاكمين..»[١].

والحقيقة أن الفارق كبير بين الأحوال السياسية وبين الأحوال العلمية، حيث نشاهد كثرة العلماء في هذا العصر كما نلاحظ غزارة إنتاجهم، فهل هذا الانفصال شيء طبيعي؟ أو أنَّ الضعف السياسي لا يؤثر في النواحي العلمية؟

الواقع أنه يؤثر؛ ولكن هناك عوامل ساعدت على استمرار العلم، منها أن الممالك الإسلامية كانت مفتوحة الحدود؛ فالعلماء يتنقلون من قطر إلى آخر يستفيدون ويفيدون، وليسوا بحاجة إلى تأشيرات دخول وخروج، فالعالَمُ عندهم ينقسم إلى دار إسلام ودار حرب رغم تشتت الدول وتفرقها، ومنها أن هذه الدول الصغيرة كانت حريصة على الشهرة والمنافسة مع الدول الأخرى، فكل ملك أو سلطان كان حريصاً على أن يكون في قصره ومجلسه من العلماء أو الأدباء أو

---

(١) محمد الغزالي/ كيف نفهم الإسلام/ ١٠٤

الأطباء ما يباهي بهم الآخرين، وإن كان غالب أهل الفقه والحديث كانوا ينشرون العلم دون رغبة أو رهبة أو تشجيع من أحد، ومنها أن هؤلاء الحكام كانوا يتركون العلماء ما تركوهم، فإذا لم يكن هناك خطر عليهم من العلماء وَدَعُوهم وشأنهم، بل كان بعض المتغلبين من أمراء الجند الأتراك يحترمون العلماء وإن كانوا لا يتورعون عن سفك الدماء لأتفه سبب.

والأهم من هذا كله أن الله سبحانه وتعالى يحفظ دينه بأمثال هؤلاء العلماء الذين سنذكر نماذج منهم وأنهم كانوا لا يبتغون بنشر العلم إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

ومن العلماء الكبار الذين أدركوا أوائل هذا القرن (الرابع الهجري):

- ابن خزيمة محمد بن إسحاق.

- البغوي الحسين بن مسعود الفراء صاحب (شرح السنة) ت ٥١٦هـ.

- ابن المنذر أبو بكر الفقيه.

- ابن جرير الطبري.

ومن العلماء المشهورين الذين عاشوا في هذا العصر:

- أبو سليمان الخطابي البستي شارح سنن أبي داود، ت ٣٤٩هـ.

- ابن حبان البستي صاحب كتاب (الأنواع والتقاسيم) وأحد الحفاظ الكبار المجتهدين، ت ٣٥٤هـ.

- الحافظ الكبير عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي صاحب (الجرح والتعديل) وصاحب التفسير، ت ٣٢٧هـ.

- العالم الزاهد الفقيه الحنبلي الواعظ أبو محمد البربهاري كان شديداً على

أهل البدع والمعاصي، كبير القدر[1] .

ـ عمر بن حسين الخرقي صاحب المختصر في الفقه على مذهب الإمام أحمد، وكان من سادات الفقهاء، خرج من بغداد مهاجراً لما كثر فيها الشر والسب للصحابة[2] .

ـ أبو أحمد بن عدي الحافظ الكبير صاحب كتاب (الكامل) في الجرح والتعديل .

ـ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري .

ـ أبو حامد الإسفراييني، صارت له رئاسة الشافعية وكان فقيهاً جليلاً .

ـ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين، وكان إماماً في الفقه والأصول والأدب .

ـ ابن سريج ا لشافعي .

ـ ابن الحداد المغربي المالكي الذي ناظر العبيدين ولم يخش سلطانهم .

ـ أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب (الأحكام السلطانية) والحاوي في الفقه .

ـ الحافظ الدارقطني إمام دهره في علم الحديث .

ـ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني .

ـ القاضي أبو بكر الباقلاني رأس المتكلمين على مذهب الأشعري .

---

(١) عندما سمع بفتنة القرامطة وأنهم يأخذون الحجّاج في الطريق قال: « يا قوم إن كان يحتاج ـ أي الخليفة ـ إلى معونة مئة ألف ومئة ألف (خمس مرات) عاونته) ولكن الدولة كانت أضعف من هذا .

(٢) ابن كثير: البداية ١١ / ٢٢٨ .

ـ عبد الله بن محمد العكبري المعروف بابن بطة، أحد علماء الحنابلة وكان ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ـ الخطيب البغدادي صاحب (تاريخ بغداد).

ـ الإمام البيهقي..

ومن علماء اللغة والادب:

ـ الزجّاج صاحب كتاب (معاني القرآن).

ـ أبو سعيد السيرافي.

ـ ابن خالويه.

ـ أبو علي القالي.

ومن الشعراء والأدباء الكبار:

المتنبي، وابن العميد، والصاحب ابن عباد، وأبو إسحاق الصابي..

ومن المشهورين في الطب والرياضيات:

ـ البيروني: من أعظم العقليات الإسلامية في الرياضيات والعلوم بشكل عام.

ـ الرازي الطبيب، وأبو الوفاء البوزجاني الرياضي المشهور، وابن البيه والبتاني وله براعة في فن الأرصاد وكان صابئياً ويقال إنه أسلم.

هذا غيض من فيض.

والذي يرجع إلى كتب التراجم والسير، فسيجد آلاف العلماء منبثين في صقع، يدرسون ويدرّسون، ولا شك أن هذا مما حفظت به هذه الأمة، وحفظ الدين، وإن وجود العلماء بهذه الكثرة لهو أمر إيجابي خفف من وطأة الضرر

الذي أصاب المسلمين، ولكن الذي يرى انحطاط الوضع السياسي ويقرأ تراجم العلماء يشعر أن هناك عالمين منفصلين؛ فالعلماء ابتعدوا عن قيادة الأمة التي تنتظر الخلاص على أيديهم إذا جاءها الضرُّ عن طريق الأمراء.

والعلماء هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قال المفسرون: أولي الأمر: العلماء والأمراء، فلماذا لا يعلّمون الناس أن يرجعوا إليهم إذا حزبهم أمر أو ادلهمَّت مصيبة؟

وإن كان لبعض العلماء دور إيجابي في النصح أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهؤلاء قلة إذا ما قيسوا بالأعداد الكبيرة من العلماء، يقول الشيخ رشيد رضا واصفاً تطور حال العلماء: «ثم رسخت السلطة الشخصية في زمن العباسيين، وجاراهم علماء الدين بعد ما كان لعلماء السلف من الإنكار الشديد على الملوك والأمراء في زمن بني أمية وأوائل زمن العباسيين»[1].

وقد يكون لسان حال بعض العلماء أو طلبة العلم: إننا نبتعد عن الهرج والمرج وعن التمرغ في أوحال السياسة والانقلابات والصراعات حول الحكم، ونربي الأجيال على حب الإسلام وننشر العلم حتى لا يندرس. وهذا هدف كبير لا شك في ذلك، وعمل جليل يستحق التفرغ له، ولكن هذه الأجيال التي رُبِّيَتْ يجب أن يكون لها دور إيجابي بعدئذ في تصحيح الانحرافات وقيادة الأمة.

قد يكون ضيق الحال الذي ابتلي به كثير من طلبة العلم، أو خُطِّطَ له من قِبَلِ الحكام سبباً لانزواء كثير منهم على الحياة العامة أو سبباً في اللجوء إلى التصوف، ولكن يبقى السؤال: كيف يتسنى لعالم أو طالب علم أن يعيش خالي البال وأمته

---

(١) المنار م٤: ٢٠٤.

تتقاذفها الأهواء والفتن، وأهل البدع لهم صولة وجولة والفساد السياسي والاقتصادي وصل إلى حد لا يطاق، ثم لا يكون للعلماء حول ولا طول في رد هذا الطوفان؟ لا بد من الاعتراف أن من عوامل الانحلال والضعف الذي أصاب الأمة هو ابتعاد العلماء عن القيادة، وعن الحكم وأصبح المثل الأعلى هو العالم الذي يبتعد عن السلطان فهذه فكرة خاطئة إذا ما عممت، فهناك علماء ربانيون يتولون التربية فهؤلاء من الأفضل ابتعادهم عن الحكم[1] أما أن يصبح الابتعاد هو المثل الأعلى فهذا من المصائب التي جرّت على المسلمين الضعف «وهل يتصور مسلم أن يجد أحداً يكون أعلم وأتقى من رسول الله ﷺ، وقد كان هو بنفسه قائد جيوش المسلمين في بدر والأحزاب.. وغيرها»[2].

يقول ابن تيمية واصفاً هذه الحالة: وبسبب ضعف الفقهاء من العلم الكافي للسياسة العادلة وقع انفصام في المجتمع الإسلامي فصار يقال: الشرع والسياسة هذا يدعو خصمه إلى الشرع، وهذا يدعوه إلى السياسة؛ والسبب تقصير هؤلاء في معرفة السنة[3].

كما صوّر أحد الشعراء هذا الفصام وانشغال العلماء والأدباء عن السياسة، وكيف تركوا الخلفاء تحت رحمة الأتراك الظلمة القساة، فقال يخاطب جماعة في مكة يبحثون في النحو الصرف:

أما تستحـــــون الله يا معدن النحـو ... شغلتم بذا والناس في أعظم الشــغل

إمامكـــم أضحـى قتيلاً مجـــندلاً ... وقد أصبح الإسلام مفترق الشـــــمل

وأنتم على الأشــعار والنحــو عُكَّفاً ... تصيحون بالأصوات في أحسن السبل[4]

---

(١) انظر ما كتبه الشيخ عبد العزيز القارئ في مجلة البيان عن العلم والتعلم العدد ٢٠/ ٩.

(٢) محمد سعيد العرفي/ سر انحلال الأمة العربية/ ١١٨.

(٣) الفتاوى ٢٠/ ٣٩٣.

(٤) البداية والنهاية ١١/ ٢٦.

وكانت ثالثة الأثافي أن القضاء الذي كان مؤسسة مستقلة بعيدة نوعاً ما عن تأثير الحكام، تحول في هذا العصر إلى نظام الضمان كما ذكرنا سابقاً، ونحن هنا نسجل ظاهرة وليس المقصود دراستها دراسة شاملة، ولكن لا بد من ذكر شيئين في هذا المقام:

أولاً: إن ابتعاد العلماء عن الحياة العامة جعلهم بعيدين عن السياسة نظرياً وعملياً، وقد سجّل هذه الظاهرة المؤرخ ابن خلدون فذكر أن «العلماء أبعد عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية، ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات»(١) ويقصد ابن خلدون أن كثيراً من العلماء لعيشهم مع الكتب ينظرون إلى الأمور من خلال هذه الكتب مع أن الواقع الخارجي (الدول وأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية) يكون مغايراً أو يحتاج إلى تدقيق في التفاصيل، أما وضع الشيء الذي في الخارج في قالب الكتب فهذا يؤدي إلى الخطأ بالتأكيد، فالذي لا يعرف الواقع يظن أن الحكام المعاصرين مثل بعض حكام الدولة الأموية أو العباسية مع أن الفارق كبير. فالسياسة - كما يقول ابن خلدون - «تحتاج إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال فإنها خفية»(٢) هذا إذا كانت السياسة بمعنى معرفة الواقع تماماً، ومحاولة النهوض بالمسلمين من خلال هذه المعرفة إلى الدرجة التي يريدها الإسلام، أما إذا كان المقصود بالسياسة المراوغة والاحتيال وإتقان فن المداهنة والنفاق فلا شك أن العلماء المخلصين بعيدون عن هذه الأجواء، وهؤلاء عندهم علم بالسياسة الشرعية وما تتطلب من اجتهاد، ولكنهم رأوا أن بَثَّ العلم في مثل هذه الأجواء هو الأوْلى، وقد أُلِّفَ في السياسة الشرعية ما

---

(١) المقدمة ٣/١٢٥٦.

(٢) المقدمة ٣/١٢٥٦.

يعتبر من المصادر الرئيسية مثل (الأحكام السلطانية) للماوردي و(غياث الأمم في التياث الظلم) للإمام الجويني، وكلام ابن خلدون لا يؤخذ على إطلاقه لأنه كان شديد الواقعية.

ظاهرة أخرى يسجلها ابن خلدون وهي الحالة الاقتصادية - الاجتماعية للعلماء، يقول: إن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة لا تعظم ثروتهم في الغالب، والسبب أن صاحب الدولة يقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم ولا يساويهم بأهل الشوكة (قادة الجند) وهم أيضاً (العلماء) لشرف بضاعتهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا حظاً يستدرون به الرزق، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة»[1].

فسبب ضيق الحال برأي ابن خلدون أن العلماء لا يتملقون أهل الجاه والمال، وهم مشغولون بالعلم والتعليم، وكثير من الدول المتأخرة ليس عندها لوظائف القضاء والإمامة والفتيا من الأهمية ما يجعلها بحاجة ماسة إلى العلماء، وهذه حقيقة واقعة، فرواتب العلماء لا تقارن برواتب الوزراء، إن راتب الوزير في الدولة العباسية أو الدولة العبيدية يصل أحياناً إلى خمسة آلاف دينار شهرياً، وإذا نقص فثلاثة آلاف، بينما كان راتب رئيس القضاة مائة دينار في الشهر[2]، وابن خلدون يوثّق هذه المعلومات فيقول: «ولقد باحثت بعض الفضلاء فأنكر ذلك عليَّ، فوقع بيدي أوراق مخرمة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج، وكان فيما طالعت فيه أوراق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه،

---

(١) المقدمة ٢/ ٩٢٥.

(٢) د. محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي/ ٨٢.

وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه[1] .

إنها ظاهرة تستحق النظر والتأمل؛ لأنها لا زالت موجودة أمام أعيننا، فالموظفون في وزارات الأوقاف لا يأخذون إلا ما يسد الرمق، وهذا شيء قد خطط له، ليظهر أئمة المساجد بمظهر غير لائق، فينفر الناس عن هذا الدين الذي يمثله هؤلاء، ولذلك اشتغل كثير من العلماء بالتجارة، حتى لا يتملقوا لأحد، وهذه المشكلة من المفروض أن يحلها العلماء أنفسهم حتى يستطيعوا قول كلمة الحق. إن المؤسسات العلمية والتعليمية، قد تكون جزءاً من هذا الحل، وحتى لا يضع العلماء زمام أمرهم بيد أعدائهم فلا بد أن يحلوا مشكلتهم بأنفسهم.

* * *

---

(١) المقدمة ٢ / ٩٢٦.

(٤)

الباطنيون والإرهاب الداخلي

من المصائب الكبرى التي نزلت بالمسلمين في هذا العصر وزادت الطين بلة هو ما ابتلوا به من الباطنية الذين أشاعوا الرعب وخلفوا الذعر في قلوب الناس بغدرهم وفتكهم بالعلماء وولاة أهل السنة، وقد اتخذوا أسلوب الاغتيال لأهدافهم في ضرب الدول أو المجتمعات السنية، فقتلوا الوزراء والملوك والعلماء في الأوقات الحرجة، وتحالفوا مع أعداء الإسلام من الصليبيين والتتار؛ وهذه الصورة ليست بعيدة عما يقع الآن من تحالف الباطنيين مع الاستعمار الغربي واليهود كرهاً في أهل السنة، وفي لبنان ذاق أهل السنة الويلات منهم، والفلسطينيون ذاقوا الأمرَّين، والقاديانية والإسماعلية في باكستان يتحالفون مع الإنكليز والغرب، والبهائيون يتحالفون مع اليهود.

والباطنية اسم يجمع كل الفرق كالحشاشين أو القرامطة أو الخرمية أو الإسماعيلية أو الدرزية... إلى كل الأسماء الكثيرة التي تدعي أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالقرآن ولكن يتخذون هذا الكلام ستاراً للانخلاع من ربقة العبودية وهم في الأصل يتخذون التشيع ستاراً لأهدافهم الإجرامية، فهم حقيقةً لا يؤمنون بالإسلام، وقصدهم الأساسي محاربة الإسلام وإنكار النبوات. «فظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض»[1] وأفعال الباطنية تتكرر في القديم والحديث، فمن يقرأ الماضي تنجلي أمامه صورة الحاضر، والمهم هو

---

(١) يحيى بن حمزة/ الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام/ ٣٨.

الاطلاع على الماضي. هل قرأ المسلمون عن المجرم حسن الصباح، أو عن شيخ الجبل في بلاد الشام، أو عن القرامطة وما فعلوه بالمسلمين حول الكعبة . . إلى آخر سلسلة الإجرام التي سنذكر نماذج منها في هذا العصر؟

تلقى الحسن الصباح أصول الدعوة عن الاسماعيلية العبيديين في القاهرة، ثم انطلق ليؤسس في قلعة (ألموت) في إيران وكراً لتنفيذ مخططه الإجرامي وضرب رؤوس أهل السنة؛ فبدأ بالوزير القدير الحسن بن علي (نظام الملك) وزير السلاجقة والذي يعبر من أخطر الشخصيات السنية على الباطنيين بسبب تأييده لعلماء السنة وتشجيعه للعلم ونشر المدارس، وهذا ما لا يريده الباطنيون، فكان هذا الوزير أول صيد ثمين للباطنية، جاءه صبي ديلمي في صورة من يطلب مساعدة وضربه بسكين فكان أول قتيل لهم، وفي سنة ٤٩٦هـ قُتل أبو المظفر بن الخجندي بالري وكان واعظاً[١] وفي سنة ٤٩٨هـ قتلوا أبا جعفر بن المشاط وهو من شيوخ الشافعية، وفي هذه السنة سار جمع كثير من الإسماعيلية من (طُريثيث) وهي من القرى التابعة لـ (بيهق) وشاعت الغارة في تلك النواحي وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم، فاشتدت شوكتهم، وعند رجوع الحُجّاج في هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد ووصولهم إلى (خوار الري) أتاهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا[٢] .

وفي سنة ٤٩٩هـ قتل الباطنية القاضي أبا العلاء صاعد بن أبي محمد النيسابوري الحنفي بجامع أصبهان[٣] . وفي سنة (٥٠٢هـ) قُتل قاضي أصبهان عبيد الله بن علي الخطيبي، وكان يلبس درعاً حذراً منهم[٤]، وفي سنة ٥١٦هـ

---

(١) الكامل ١٠ / ٣٦٦ .
(٢) الكامل ١٠ / ٢٩٢ .
(٣) الكامل ١٠ / ٤١٥ .
(٤) الكامل ١٠ / ٤٧١ .

هاجم الباطنية وزير السلطان محمود السلجوقي أبا طالب السميري وقتلوه[1].

وفي أحداث ٥١٩هـ قتل القاضي أبو سعد محمد بن نصر الهروي بهمذان، وكان قد مضى في رسالة للخليفة إلى السلطان سنجر[2].

وفي ٥٢٠هـ قتل أمير الموصل أبو سعيد البرسقي. قتله الباطنية يوم الجمعة، وكان يصلي بجامع الموصل، قال عنه ابن الأثير: «وكان مملوكاً تركياً، خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله»[3].

وفي ٥٢٥هـ حاول الباطنية قتل ملك دمشق بوري بن طغتكين فجرحوه وبقي مريضاً من هذا الجرح وتوفي في السنة التالية، وكان كثير الجهاد شجاعاً مقداماً[4]، وسبب الاعتداء هو أن بوري قتل وزيره الذي تحالف مع الإسماعيلية كما قتل جمعاً من الإسماعيلية، فأرسل له ابن صباح من يغتاله[5].

وفي ٥٢٩هـ قتل الباطنية الخليفةَ العباسي المسترشد بالله الفضل بن العباس، وقد مثلوا به بعد القتل وتركوه عرياناً[6]، قال عنه الذهبي: كان ديناً ذا شهامة وشجاعة.

وعندما كُلف أمير الموصل مودود بن زنكي بمحاربة الصليبيين من قبل السلطان غياث الدين السلجوقي، جمع مودود الجموع من أقاليم الجزيرة، وتوجه إلى الشام وانتزع من الصليبيين حصوناً كثيرة، فلما دخل دمشق ذهب للصلاة في جامعها

---

(١) الكامل ١٠ / ٦٠١.
(٢) الكامل ١٠ / ٦٣٠.
(٣) الكامل ١٠ / ٦٣٤.
(٤) الكامل ١٠ / ٦٨٠
(٥) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٥٧٤
(٦) الكامل ١١ / ٢٧

فجاءه باطني بزي سائل فطلب منه شيئاً فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه بسكين فمات من ساعته رحمه الله[١]، ويقال إن ملك القدس الصليبي أرسل رسالة إلى ملك دمشق يقول فيها: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها، في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها». «وفي بداية القرن الخامس جاء داعية الإسماعيلية (بهرام) إلى الشام وبدأ بالدعوة فاستجاب كثير من العوام وسفهاء الجهال، وسكت عنه العلماء وحملة الشريعة خوفاً من بطشهم»[٢].

هؤلاء الباطنية إما أن يقتلوا المسلمين أو يساعدوا الأعداء عليهم، أو يطلبوا المعونة منهم، يقول ابن الأثير عن الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم[٣]: «تحاماه المسلمون والفرنج، يحتمي على كل طائفة بالأخرى، فجاء ملك دمشق إسماعيل بن بوري وأخذ منه قلعة شقيف[٤] ومعلوم أن وادي التيم قد انتشرت فيه الدعوة الإسماعيلية الدرزية.

ومن العلماء الذين قُتلوا على يد الباطنية أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن قايد الأواني[٥] زاهد، خاشع ذو تأله، حضر باطني إلى قرية هذا العالم على هيئة واعظ فتكلم في المسجد ونال من الصحابة، فحُمل ابن قايد في محفته وصاح به: يا كلب انزل، ورجمته العامة فهرب، وحُدِّث سنان (كبير الإسماعيلية في الشام) بما تم على هذا الباطني في أوانا فندب لابن قايد اثنين من أتباعه فأتياه وتعبدا معه أشهراً، ثم قتلاه وقتلا خادمه وهربا في البساتين فأنكر أمرهما فلاح من أصحاب البساتين فقتلهما ثم أحرقا[٦].

---

(١) البداية والنهاية ١٢/١٨٥.
(٢) محمد كرد علي/ خطط الشام ٢/٣.
(٣) وادٍ في لبنان جنوب سهل البقاع.
(٤) الكامل ١١/١١.
(٥) نسبة إلى أوانا وهي قرية شمالي بغداد.
(٦) سير أعلام النبلاء ٢١/١٩٥.

وهذا الذي ذكرناه هو ما فعله الإسماعيلية الحشاشون فقط ولم نتكلم عن غيرهم من الباطنية، وهؤلاء وغيرهم من القرامطة كانوا نتيجة المد الشيعي وقيام دول لهم.

يقول الأستاذ محمد كرد علي: «والغريب أن شيعة جبل عاملة كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين إلا قليلاً، كما كان هوى الموارنة مع الصليبيين ويعملون عندهم أدلاًء وتراجمة»(١).

* * *

(١) خطط الشام ٢ / ١٤.

(٥)

التجاوب الضعيف

بسبب هذا الضعف والتفرق، وهذه الصراعات الداخلية وفساد الباطنية لم يتمكن المسلمون في بغداد وغيرها من مساعدة إخوانهم في بلاد الشام حين دهمها الفرنجة والصليبيون؛ ففي حين وصل الصليبيون إلى القدس كان العالم الإسلامي يعيش بعيداً عن هذه الأحداث، وكأنَّ في أذنيه وقراً كما يحدث الآن حذو القذة بالقذة، فاحتلال اليهود للقدس لم يثر نخوة الدول القريبة أو البعيدة، واكتفوا بالاحتجاجات والشجب لدى الأمم المتحدة والرأي العام العالمي! وإن منظر اليهود وهم يكسرون يد الشاب الفلسطيني لم يحرك أحداً، وقد سجلت حوادث التاريخ هذا التجاوب الضعيف أو نستطيع القول إنه لم يكن هناك تجاوب أحياناً ففي عام ٣٦١هـ هاجم الروم مدينة الرها في إقليم الجزيرة فذهب وفد من أهلها إلى بغداد وأبلغوهم بما فعله الروم فذهب وجوه أهل بغداد للملك بختيار البويهي فوجدوه مشغولاً بالصيد فأنكروا عليه ذلك.

كما أنكروا عليه قتال عمران بن شاهين وهو مسلم وترك جهاد الروم. فتظاهر بختيار بأنه عزم على الجهاد وطالب الخليفة بالأموال الطائلة وهو يعلم أن الأموال بيده لا بيد الخليفة، مما اضطر الخليفة مع هذا الإلحاح إلى بيع أثاث بيته ولكن بختيار أنفقها على مصالحه الخاصة وبطل الحديث عن الجهاد[١].

وبعد وصول الصليبيين إلى بلاد الشام خرج القاضي أبو علي بن عمار صاحب

---

(١) الكامل ٨/٦١٨.

طرابلس مسرعاً إلى بغداد مستنفراً المسلمين لإنقاذ بلاد الشام، وخطب في مساجد بغداد داعياً للجهاد، وتحمس الناس وتأهبوا ووعده السلطان بإرسال الجيوش ولكن لم يتم شيء، ورجع القاضي إلى طرابلس ليفاجأ بأن العبيديين (الفاطميين) أصحاب مصر قد استولوا على مدينته عوضاً عن مساعدته ضد الفرنجة[1].

وبعد أخذ الصليبيين للقدس هام الناس على وجوههم فارِّين إلى العراق، فلما رأى الناس ذلك هالهم ما سمعوا من وحشية الصليبيين وما سفكوا من دماء عند بيت المقدس، وندب الخليفة الفقهاء للخروج وتحريض الملوك على الجهاد فساروا في الناس وتكلموا ولكن لم ينفع ذلك شيئاً[2] ولا أعتقد أن هذه مسرحية من الخليفة أو العلماء، ولكنه الإخفاق والضعف الذي سيطر على المسلمين فجعلهم يترددون في اتخاذ القرار المناسب إضافة إلى ترددهم في الأعمال الكبيرة. وفي سنة (٥٠٤هـ) تجهز جماعة من أهل بغداد، من العلماء وغيرهم للخروج إلى الشام رغبة في الجهاد، ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج[3].

وفي حوادث ٤٩٢هـ قال ابن الأثير: ورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف (القدس) من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال، فأمر الخليفة أن يُسيِّر القاضي الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو الوفاء بن عقيل إلى حلوان، ثم عادوا من غير بلوغ أرب[4].

---

(١) الكامل ١٠/٤٥٢.
(٢) البداية والنهاية ١٢/١٦٧.
(٣) البداية والنهاية ١٢/١٨١ ويجب أن تلاحظ هنا أن الجهاد على المستوى الشعبي كان مسموحاً به ولكن الآن لا يسمح به فتاشيرات الدخول والخروج تمنع ذلك.
(٤) الكامل ١٠/٢٨٤.

وفي عام ٥٠٥هـ تحمس السلطان السلجوقي لمساعدة المسلمين في بلاد الشام فجهز جيشاً كثيفاً برئاسة الأمير مودود ومعه من الأمراء: صاحب تبريز (سكمان القطبي) وصاحب مراغة (أحمديل) والأمير إيلغازي صاحب ماردين، واستطاع هذا الجيش انتزاع بعض الحصون من الفرنجة ولكن أكثر الأمراء رجعوا إلى مدنهم خوفاً من حصول أي انقلاب عليهم، ثم إن الباطنيين قتلوا الأمير مودود في الجامع الأموي في دمشق، ومن الأمثلة أيضاً على التجاوب الضعيف أنه عندما اشتد القتال حول أسوار عكا وجد السلطان صلاح الدين الأيوبي أن المسلمين في داخل عكا قد تعبوا من طول الحصار، فأراد التخفيف عنهم فأرسل رسالة إلى ملك المغرب في دولة الموحدين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به ويطلب المساعدة، وخاصة الأسطول البحري كي يمنع إمداد الفرنجة المستمر لمقاتليهم في عكا، ووصلت الرسالة إلى أبي يوسف ولكنه غضب ورفض المساعدة؛ لأن صلاح الدين لم يكتب له في الرسالة: إلى (أمير المؤمنين)[1].

وبعد احتلال القدس كيف كان رد الفعل عند العبيديين الذين يحكمون مصر؟ لقد أرسل وزيرهم الأفضل بن بدر الجمالي ينكر على الصليبيين ما فعلوا، وجمع جيوشه إلى عسقلان ولكن الصليبيين تمكنوا من مفاجأتهم وهم على غير استعداد فقتلوا منهم وغنموا ما في معسكر الأفضل من مال وسلاح وانهزم الأفضل، واستتر الجنود بشجر الجُميز. وهذا يذكرنا بهزيمة ١٩٦٧م التي هام فيها الجنود المصريون على وجوههم في صحراء سيناء؛ لأن القيادة لم تكن مستعدة للقتال ورمت بهؤلاء الجنود في الصحراء المكشوفة وما كان ذلك إلا نوعاً من الاستعراض السياسي.

بكى هذه الحالةَ المؤسفةَ القاضي أبو المظفر الآبيوردي فقال يرثي القدس، ويحث المسلمين على الجهاد:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عُرضةٌ للمراحم

وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يفيضُه ... إذا الحربُ شُبّت نارها بالصوارمِ

فإيهاً بني الإسلام إنَّ وراءكم ... وقائعَ يُلْحِقْن الذُرّى بالمناسمِ

أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم

وإخوانُكم بالشام يضحى مقيلُهم ... ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعم

تسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تجرُّون ذيلَ الخفضِ فعْلَ المسالم

أرى أمتي لا يُشرعون إلى العدىٰ ... رماحَهُمُ والدينُ واهِي الدعائم

فليتَهُمُ إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين، ضَنُّوا غيرةً بالمحارمِ(١)

* * *

(١) الكامل ١٠ / ٢٨٤ .

الفصل الثاني

الاتجاهات الشيعية والباطنية تحاول السيطرة

١ ـ العبيديون.

٢ ـ البويهيون.

٣ ـ القرامطة.

٤ ـ بنو حمدان.

٥ ـ الأسديون.

٦ ـ الصليحيون.

٧ ـ نتائج ودروس.

ما إن أظل القرن الرابع الهجري حتى بدأت الدولة الشيعية تظهر هنا وهناك كبقع من الزيت فوق سطح الماء، ثم راحت تنداح وتتوسع حتى بدا للناظر أنهم سيطروا على أكثر العالم الإسلامي يومها.

نجحت دعوات التشيع والغلو في إيجاد موطئ قدم لها في كثير من البلدان، ولا شك أن ضعف الخلافة المركزية ونشاط الدعاة الشيعة في الأقاليم البعيدة أو الأقاليم الجبلية، وحب الناس للتغيير ورؤية دول جديدة وأسر جديدة، كل هذا كان من أسباب هذه السيطرة. ويسجل المؤرخ ابن كثير هذه الظاهرة عندما يترجم لأحد علماء الشيعة فيقول: «ابن النعمان شيخ الروافض، المحامي عنهم، كانت له وجاهة عند ملوك الأطراف لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشيع، وكان من جملة تلاميذه الشريف الرضي والمرتضى»[1].

وسنذكر بإذن الله نبذة مختصرة عن كل دولة من هذه الدول، وهل كان وجودها ضرراً على الإسلام والمسلمين أم لا؟ وهل أسهمت في إضعاف المسلمين وتشتتهم؟ وذكر مثل هذه الأشياء يعطي صورة واضحة عن الحالة العامة للمسلمين منذ بداية القرن الرابع والذي يليه.

---

١ ـ البداية ١٢ /١٧.

(١)

العبيديون

(٢٩٧ - ٥٦٧ هـ)

استغلت الحركات السرية المتكتمة ضعف الخلافة وراحت تنشط لإيجاد أرض لها، وتغوي الناس بستار ظاهره التشيع وباطنه الكفر المحض، واستطاعت الحركة الإسماعيلية السرية التي تتخذ من بلدة (سلمية)[١] مقراً لها أن تجد أرضاً خصبة في شمالي أفريقيا، بعد أن مهد لها وأزال العقبات من طريقها داعيتهم الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني الملقب بأبي عبد الله الشيعي، وقد وصف بأنه من الرجال الدهاة، دخل أفريقيا وحيداً بلا مال ولا رجال ولم يزل يسعى إلى أن ملكها[٢]، وكان رئيسه في الدعوة ابن حوشب قد كلفه بأن يلتقي بقبيلة كتامة من المغرب في موسم الحج، وعندما التقى بهم استطاع بدهائه أن يؤثر فيهم، ويتلاعب بعقولهم، وأعجبوا به فرحل معهم إلى بلادهم، والتفَّت عليه قبيلة كتامة وغيرها، وحارب القبائل الأخرى، وسقطت مدن المغرب الأوسط: سجلماسة وميلة وتاهرت ورقادة، حتى إذا ما مهّد للأمر واستقرت به الأحوال أرسل إلى زعيم الدعوة طالباً إليه المجيء ليسلم إليه مقاليد الأمور، وهذا الزعيم هو عبيد الله من ذرية عبد الله بن ميمون القداح الفارسي الباطني على رأي بعض المؤرخين، والبعض يقول إنه ربيب

---

(١) بلدة في سورية شرق مدينة حماة.

(٢) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢ / ١٩٢ .

الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح[1]، ولكنه زعم أنه من ذرية فاطمة رضي الله عنها، وأكثر العلماء والمؤرخين والنسابين ينفون عنه هذا النسب.

استطاع عبيد الله النجاة من المراقبة الشديدة التي وضعت عليه بعد مغادرته لبلاد الشام وحتى وصوله إلى المغرب، ولكن والي سجلماسة ظفر به وأودعه السجن ولم يقتله، وهذا من الغفلة المعهودة، ثم إن أبا عبد الله الشيعي استطاع إنقاذه وتقديمه للناس إماماً للدعوة وقد بايعه هؤلاء، ولقب نفسه بالمهدي وهو مؤسس الدولة العبيدية التي تسمى بـ (الفاطمية). وليس من غرضنا الاستعراض التاريخي لهذه الدولة منذ نشأتها وحتى سقوطها، بقدر ما نود توجيه الأنظار إلى أفعالها وموقفها من أهل السنة، وضرورة تقويمها بميزان الإسلام.

هذه الدولة دولة باطنية وليست فاطمية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم، ولو كان نسبهم صحيحاً فَلِمَ لم يفصحوا عنه وقد ملكوا مصر والشام وشمالي أفريقيا وأصبحت لهم قوة ترهب، فمِمَّ يخافون؟ ولِمَ لم يقولوا: نحن كنا مضطرين لإخفاء النسب في الفترة السرية حتى لا يُقضى علينا، وقد سأل الشريف ابن طباطبا ملكهم الذي فتح مصر والملقب بالمعز العبيدي عن نسبه، فسلّ سيفه وقال: هذا نسبي، ونثر الذهب وقال: هذا حسبي[2] وصدق الشاعر عندما قال فيهم:

إنا سمعنا نسَباً منكــــراً ... يُتلى على المنبرِ في الجامــع

إن كنتَ فيما تدَّعي صادقاً ... فاذكرْ أباً بعدَ الأبِ الرابع[3]

---

(١) الكامل ٨ / ٣٦.

(٢) وفيات الأعيان ٢ / ٨٠.

(٣) سينتهي نسبه إلى ميمون القداح ولذلك لم يزد نسبه.

وعندما كتب العزيز العبيدي إلى الخليفة الأموي في الأندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر يسبّه ويهجوه.. اكتفى الحكم بأربع كلمات جواباً على سبه وشتمه فقال: «عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك»(١).

وشيء آخر وهو أنه يستبعد في طبائع الأشياء أن تكون هذه الأسرة من نسل فاطمة، رضي الله عنها، ويكون فيها هذا السوء وهذا الكره للإسلام، ولا بد أن يعود واحد منهم إلى رشده ويرده نسبه الأصيل، ومعدنه الكريم إلى الحق؛ أما أن تتواطأ أسرة بكاملها على الباطل فهذا بعيد. فقد قامت دولة الموحدين في المغرب بدعوة محمد بن تومرت الذي لقب نفسه بالمهدي أيضاً وأتى بالعظائم من القتل وادعاء الخوارق حتى استتب له الأمر، وحكمت بعده أسرة عبد المؤمن صاحبه والرجل الثاني بعده، ثم قام من ملوكهم من ذرية عبد المؤمن مَنْ أنكر المهدية والعصمة لابن تومرت، وقامت أسر هاشمية وحكمت في الأندلس (بنو حمود) وفي طبرستان (بنو الحسن بن زيد) ولم ينكر أحد نسبهم، ولا فعلوا ما فعلت الدولة العبيدية، وسنرى من أفعال هذه الدولة ما يدل على قبح سيرتهم وسوء سريرتهم، وأنهم كانوا شوكة في حلوق المسلمين، وبلاء مسلطاً على المؤمنين، وعندما تصرَّمت أيامهم على يد القائد صلاح الدين وبتوجيهات من الملك العادل نور الدين، لم يبق لهم رسم ولا أثر ﴿**كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾ [إبراهيم: ٢٦] ولم نسمع أن هناك مصرياً واحداً بقي على عقائدهم بعد زوالهم، وهذه أمثلة من سيرتهم وأفعالهم:

١ - من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيل المهدي،

---

(١) الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد/ ٩٦ قال الذهبي في تاريخ الإسلام: ويا حبذا لو كان رافضياً وبس ولكنه زنديق.

فأنكر عليهم قيِّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلّة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه، فلم يزل به حتى هلك»[١] قال أبو شامة عن عبيد الله هذا: «وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة، ونشأت ذريته على ذلك يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسرّوه»[٢].

٢ ـ أمر المنصور بن العزيز الملقب بـ (الحاكم بأمر الله) بحرق القاهرة، فهبّ السكان للدفاع عن أنفسهم وقاتلوا عبيد الحاكم وجنوده قتالاً شديداً، والنار تلتهم المساكن، ويخرج الحاكم كل يوم وينظر ويبكي ويقول: مَنْ أمر هؤلاء العبيد بهذا؟ وكان يظهر التنصل، وكأنه يريد الفصل بين الفريقين[٣].

هذه تصرفات لا يتقنها إلا الباطنيون الذين تدربوا على هذا وأصبحت الباطنية ممزوجة بدمهم، ولا يستطيع أحد تفسير تصرفات باطنية هذا العصر (القرن الخامس عشر) إلا إذا عرف تاريخهم، فقد يستغرب الناس ويحارون كيف يضرب الباطنيون الفلسطينيين في لبنان، ثم يتباكون على فلسطين، ويتظاهرون بحرب العدو وتحرير الأرض، وكيف يضربون أهل السنة ويرفعون شعار الوطنية؛ والمغفلون الذين لا يدرسون التاريخ يصدقون هذه الادعاءات!!

٣ ـ لا يعلم الذين يقرؤون تاريخ العبيديين إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة: ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره. والمقصود نشر كتب الفلاسفة؛ ولكن لا أحد يذكر ـ عدا الذين ترجموا للعلماء ـ

---

(١) الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، هاشم ص ٢٧.
(٢) الروضتين في أخبار الدولتين/ ١ ٢٠١.
(٣) البداية ١٢ / ١١.

بطش هؤلاء الظلمة بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وأنه هو الذي بنى القاهرة وأسس الأزهر.. بل ويضيفون القاهرة إليه (قاهرة المعز) وقد عاهد قائده (جوهر) أهل مصر على ترك الحرية لهم في بقائهم على السنة، ولكن لما دخل الجيش وتمكن من مصر، وانتقل المعز إلى القاهرة لم يعمل بهذا العهد وجدّ الفاطميون في تشييع المصريين[1]، وهذا الطاغية (المعز) هو الذي بطش بالعالم أبي بكر النابلسي عندما أُحضر إليه وجرى بينهما هذا الحوار:

المعز: أنت الذي تقول: لو معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة والمصريين (العبيديين) بواحد.

الشيخ: لا، بل لرميتكم بتسعة ورميت الروم بواحد.

- ولم؟

- لأنكم غيرتم دين الأمة وقتلتم الصالحين وأطفأتم نور الإلهية.

فضُرب هذا العالم بالسياط، ثم سُلخ جلده، سلخه يهودي ثم قتله، ولعنة الله على الظالمين.

ومن العلماء الذين قُتلوا على أيديهم: محمد بن الحُبُلي قاضي مدينة برقة. أتاه أمير برقة فقال: غداً العيد. قال القاضي حتى نرى الهلال ولا أفطر الناس وأتقلد إثمهم، فأصبح الأمير بالطبول والبنود أهبةً للعيد (وكان العبيديون يعتمدون الحساب الفلكي) قال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فطلبه المنصور العبيدي (حفيد عبيد الله) فقال له: تنصّل وأعفو عنك، فامتنع، فأمر به فعلق في الشمس إلى أن مات وكان يستغيث من العطش فلم يُسق، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام ١ /١٩٣.

على الظالمين»[1].

«ومنهم ابن البَردون الإمام تلميذ أبي عثمان ابن الحداد، قتله أبو عبد الله الشيعي، وقد قال له لما جُرّد للقتل: أترجع عن مذهبك؟ فقال: أعن الإسلام أرجع، ثم صلب وقد كان بارعاً في العلم رحمه الله»[2] ومنهم ابن خيرون الإمام أبو جعفر محمد بن خيرون المعافري، أمر عبيد الله المهدي بأن يداس حتى الموت، فقفز عليه الجنود السودان حتى مات، وذلك بسبب جهاده وبغضه لعبيد الله وجنده»[3].

ومن العلماء الذين شاركوا في الثورة ضد العبيديين أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم المغربي (خرج في ثورة أبي يزيد الخارجي) وكان علماء أهل السنة يقولون: نخرج مع أهل القبلة (الخوارج) ضد الكفرة العبيديين.

قال الذهبي: وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد، لما شهدوه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه، وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة يصدق بعضها بعضاً، وخرج كثير من العلماء والعباد مع أبي يزيد الخارجي لقتال القائم بن عبيد الله، وقالوا: نكون مع أهل القبلة ضد من ليس من أهل القبلة»[4].

وفي حوادث ٣٨١ هـ «ضُرب رجل من أهل مصر وطيف به في المدينة؛ لأنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ للإمام مالك»[5]، ويقول العالم البحاثة محمد بن الحسن الحجوي: «وسقط المذهب المالكي في القيروان والقطر التونسي ثم الجزائري

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥ / ٣٧٤.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢١٦.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢١٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٥ / ١٥٤.
(٥) ضحى الإسلام ١ / ١٩٥.

سقوطاً كلياً باستيلاء المتبربرين من الأعراب الجفاة الذين صبهم الفاطميون من مصر على أفريقية كالصاعقة سوط عذاب، فخربوا القيروان سنة ٤٤٩هـ وجلا علماؤها إلى الأقطار ومات منهم كثير[١].

عقيدتهم وصلتهم بالقرامطة:

إن كثيراً من الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن الدولة العبيدية لا يذكرون إلا سيرتهم السياسية، ولا يتطرقون من قريب أو بعيد إلى سوء اعتقاد ملوكها وأنهم باطنيون وإن أظهروا خلاف ذلك؛ لأنهم يستعملون (التقية) أمام الشعب الذي يحكمونه، وعندما استولى السلطان صلاح الدين وعزم القبض على العاضد آخر ملوكهم استفتى العلماء في قتله فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الشيخ نجم الدين الخبوشاني فإنه عدَّد مساوئ هؤلاء القوم وسلب عنهم الإيمان[٢].

يقول ابن خلكان: «وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، وإذا رأى سنياً استحل دمه»[٣] وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيده، ودعوتهم دعوة واحدة، فقد كتب المعز إلى القرامطة عندما سمع بنبأ محاولتهم حصار مصر يذكر فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة، وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله[٤]. يقول الإمام الشاطبي: أما الدجالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا أفريقية، فقد حكي عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معداً رسول الله، فهمَّ المسلمون بقتله (أي المؤذن) ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره؟

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٢ / ١٦٥ .وهو بتحقيق د. عبد العزيز القارئ.
(٢) وفيات الأعيان ٣ / ١١١.
(٣) وفيات الأعيان ٣ / ١١٠.
(٤) الكامل ٨ / ٦٣٨.

فلما انتهى كلامهم إليه قال: «اردد عليهم أذانهم لعنهم الله»[١].

وعندما أقدم أبو طاهر القرمطي على شناعاته وإجرامه في مكة وبلغ ذلك عبيد الله المهدي كتب إليه ينكر عليه ذلك ويلومه يقول: «قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت»[٢]. وعندما قُبض على الباطنيين في بغداد وكانوا يكاتبون القرامطة قال أحدهم: «وإمامنا المهدي محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق المقيم في بلاد المغرب»[٣].

وفي حوادث ٤١٤هـ: قام رجل من المصريين (العبيديين) بضرب الحجر الأسود بآلة ثقيلة والسيف في يده الأخرى وهو يقول: «إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي، فتمكن منه أحد الحجاج من اليمن فضربه بخنجر فقتله[٤] وهذه هي حقيقتهم لا يؤمنون بالرسالات ولا بالأنبياء، كما صرح هذا الذي يؤمن بدعوتهم. وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في أنحاء العالم الإسلامي إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية في مصر فإن حسن الصباح زعيم قلعة (ألموت) الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين إنما تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر، فهؤلاء الحشاشون هم الذين قتلوا الوزراء والعلماء الذين ذكرناهم سابقاً، والدروز في بلاد الشام من آثار دعوة الدولة العبيدية، وهم يؤلهون الحاكم العبيدي، ويعتقدون بالتناسخ، ومواقفهم السياسية مخزية، وكانت بريطانيا تعتمد عليهم في سياستها في المنطقة، وعلاقة دروز فلسطين بإسرائيل علاقة جيدة حتى إن كُتَّابهم يضطرون لذكر بعض هذه العلاقات ويحاولون تسويغها[٥] وننقل

---

(١) الاعتصام ٢/٩٧.

(٢) الكامل ٨/٢٠٨.

(٣) الكامل ٨/١٧٤.

(٤) الكامل ٩/٣٣٢.

(٥) انظر ما كتبه محمد عبد الغني النواوي عن مخططاتهم وارتباطاتهم في كتابه (رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي).

هنا موقفاً واحداً من مواقفهم لربط الماضي بالحاضر: «اجتاحت إسرائيل عام ١٩٨٢م جنوب لبنان ووصلت إلى بيروت وقاوم المسلمون السنة هذا الاجتياح بما لديهم من أسلحة وإمكانات؛ ولكن الدروز لم يقاوموا أبداً، وفي تصريح لأحد زعماء منظمة التحرير الفلسطينية قال: الدروز لم يقاتلوا خلال الغزو الأخير مع أنهم يملكون السلاح الجيد»[١] ودخلت كتيبة من جيش إسرائيل إلى منطقة الشوف دون مقاومة وفي مقابلة لشيخ الدروز محمد أبو شقرا مع صحفي أمريكي قال: «إن جيش الدفاع الإسرائيلي أخذ يعيد للدروز حقوقهم المغتصبة».

وزراؤهم:

استعان العبيديون في شؤون الحكم باليهود والنصارى وغلاة الشيعة، ومن أشهر وزرائهم يعقوب بن كلس اليهودي الأصل، وبدر الجمالي وابنه الأفضل الأرمني الشيعي، وهذه ميزة في دولتهم لا يحسدون عليها، والظاهر أنهم يخططون لاكتساح العالم الإسلامي ولا يهتمون بالوسيلة، وبمن يستعينون تماماً كما نجد الخميني وزمرته في العصر الحديث.

وإليك نماذج من وزرائهم:

١ ـ يعقوب بن كلس:

الوزير الأول في أيام نزار الملقب بالعزيز قال ابن عساكر: كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء، وفيه فطنة وذكاء، نزل مصر أيام كافور الإخشيدي، فرأى منه فطنة ورياسة فقال عنه: لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً، فطمع في الوزارة فأسلم وفهم مقاصده الوزير ابن خنزابة فأراد أن يبطش به فهرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع المعز، ونفق على المعز وكشف له أموراً

---

(١) مقابلة مع مجلة المجتمع الكويتية بتاريخ ١٦/١١/١٩٨٢.

وحسَّن له تملك البلاد ثم جاء في صحبته إلى مصر[1] وقد حزن عليه العزيز كثيراً عندما هلك، وعاده في منزله وقد خلف ابن كلس وراءه من الذهب والجوهر والمتاع ما لا يوصف كثرة[2]. وأما قول المؤرخين إنه أسلم، فإنهم يعنون أنه تحول من اليهودية إلى الإسماعيلية مذهب رؤسائه، وأي إسلام هذا؟

٢ ـ عيسى بن نسطورس النصراني:

وزر للعزيز بعد ابن كلس، وقد ضج المسلمون في مصر من هذا الوزير لمحاباته لأبناء جلدته من النصارى، كما ساعد اليهود وأرسل منشا اليهودي نائباً عنه إلى الشام. وقد تحايل أهل مصر لإيصال هذه الشكوى إلى العزيز فكتبوا رقعة وجعلوها في يد تمثال من ورق وفي هذه الرقعة: «بالذي أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك إلا شكفت ظلامتي» وأقعدوا التمثال على طريق العزيز، فلما رآه حسبه حقيقة وأخذ الرقعة منه وقرأ ما فيها فأبعد الوزير فترة ثم أعاده بعد أن شفعت له ابنة العزيز ست الملك[3].

٣ ـ في عهد الحاكم ابن العزيز (٣٨٦ - ٤١١هـ):

عَيّنَ الحسين بن جوهر قائداً للقواد، وفوض إليه أمر تدبير المملكة فعين نائباً له فهد بن إبراهيم النصراني، وفي عهد الحاكم أيضاً وصل منصور بن عبدون النصراني إلى مرتبة الوزارة، وكان متولياً لديوان الشام من قبل، وصفه ابن كلانس بأنه كان رجلاً خبيثاً جلداً[4]، كما تولى الوزارة في عهد الحاكم أيضاً: زرعة بن عيسى بن نسطورس وصاعد بن عيسى بن نسطورس.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٤٣.

(٣) الكامل ٩/١١٦.

(٤) المنياوي: الوزارة والوزراء في العهد الفاطمي/٢٤٧.

٤ ـ وفي عهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧):

تولى الوزارة صدقة بن يوسف الفلاحي وهو يهودي تحول إلى المذهب الإسماعيلي، وبقي في الوزارة من سنة ٤٣٦ - ٤٣٩هـ، ومن الوزراء المشهورين في عهده بدر الجمالي الأرمني الشيعي.

٥ ـ وفي عهد المستعلي والآمر:

تولى الوزارة الأفضل بن بدر الجمالي، وفي عهده تولى يهودي شؤون قصر أم الخليفة فاشتد نفوذه وأسند مناصب الدولة لليهود[١].

والأفضل هذا هو الذي عرض على الفرنجة عند وصولهم إلى أنطاكية «مقترحاً تقسيم الشام، فيكون شمال سورية من نصيب الفرنج وتستولي مصر على فلسطين»[٢]، ولكن يبدو أن اقتراحه لم يلقَ رواجاً؛ لأن الصليبيين كان من أهدافهم الرئيسية بيت المقدس، فاستولوا عليه عام ٤٩١هـ بينما نجد أن الوزير السني ابن السلار حاول التحالف مع نور الدين محمود لرد عادية الصليبيين، وكان الوسيط بينهما الأمير أسامة بن منقذ الكناني، وقد جهز ابن السلار أسطولاً لمحاربة الفرنجة أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار[٣].

وفي عهد الحافظ ٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ تولى الوزارة بهرام الأرمني ولقد لقبه الحافظ بـ (سيف الإسلام وتاج الخلافة) مع أنه نصراني ولم يسلم، ومن وزرائهم المتأخرين طلائع بن رزيك وهو أرمني شيعي.

---

(١) الصنهاجي / أخبار ملوك بني عبيد / ٧١.

(٢) الوزارة والوزراء / ٢٢٦.

(٣) الوزارة والوزراء / ٢٢٨.

هل دافعوا عن القدس؟:

عندما زحف الصليبيون باتجاه القدس وحاصروها كان متسلمها وقائد حاميتها أمير الجيوش الأفضل الجمالي وزير المستعلي، وقد تسلمها الفرنجة بسهولة ودون مقاومة تذكر. ويعلق ابن خلكان على ذلك بقوله: «ولو كانت في يد الأرتقية (أمراء الشام من الأتراك) لكان أصلح للمسلمين[1]» وكان وزيرهم (شاور) يستنجد بالصليبيين خوفاً على منصبه من السلطان المجاهد نور الدين محمود، وعندما تملك مصر السلطان صلاح الدين وانقطعت الدولة العبيدية اتفق بقايا العبيدية على إرجاع الدولة فراسلوا الفرنجة في صقلية يطلبون المساعدة ولكن المؤامرة كشفت وقتل من تولى كبرها[2]، فهل يبتلى المسلمون دائماً بالباطنية الذين يسلمون البلاد لأعداء الله، ثم ينسى المسلمون هذه الأفعال الشنيعة، ويخدعهم هؤلاء بكلمات الوطنية والمصلحة العامة؟!

هل كانت دولة حيادية؟:

يصف بعض كتاب التاريخ أن الدولة العبيدية لم تكن متعصبة لمذهبها الإسماعيلي، ولم تنشر دعوتها بالقوة، ولكن الحقيقة غير ذلك فقد اهتم حكام الدولة بنشر مذهبهم، ونظموا الدعوة والدعاة. وقد حمل العبء الأكبر في تنظيم ونشر المذهب الإسماعيلي الوزير ابن كلس، فعمل على قيام دراسة منظمة له في الجامع الأزهر، ورتب لذلك جماعة من الفقهاء يتدارسونه[3] ويرأس الدعاة نقباء وعلى رأس هؤلاء جميعاً داعي الدعاة الذي يعتبر الصلة بين رأس الدولة وبين معتنقي المذهب، وكان فقهاء الدولة ودعاتها تحت نفوذه ويعرضون عليه ما أعدوه

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٧٩.

(٢) الكامل ١١ / ٣٩٨.

(٣) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي / ١٣٣.

من محاضرات في أصول المذهب[١] وداعي الدعاة القاضي النعمان بن محمد بن منصور يؤلف الكتب في المذهب والدعوة، مع أنه كان مالكياً وارتد إلى مذهب الباطنية، وصنف في الرد على أبي حنيفه ومالك والشافعي[٢] وداعيتهم (الدرزي) ينشر دعوتهم بين صفوف العرب بوادي التيم في بلاد الشام، وهم الذين يسمون بـ (الدروز) . كما أن الحسن الصباح من دعاتهم وهو الذي نشر الإرهاب والقتل في أرجاء العالم الإسلامي .

ومن آثار دعوتهم أن أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس عندما أراد تحويل الخطبة لبني العباس والسلاجقة ويترك العبيديين رفض العامة في حلب هذا التحول، وحملوا أثاث المسجد وقالوا: هذه حصر علي بن أبي طالب، فليأت أبو بحر بحصر يصلي عليها الناس؟! ولما استقر لهم الأمر في دمشق أذِّن في نواحيها بـ (حي على خير العمل) وكتب سب الشيخين على أبواب الجوامع ولم تزل كذلك حتى أزيلت زمن دولة الأتراك والأكراد[٣] .

يصف الذهبي عموم جيوشهم بأنهم أهل شر وزعارة لا سيما من تزندق منهم، وقد ذاق المسلمون منهم من القتل والنهب والسبي حتى إن أهل صور استنجدوا بنصارى الروم من ظلمهم وجورهم وأخذهم النساء من الحمامات والطرق[٤] . وربما خففوا من قبضتهم الشديدة على علماء السنة في مصر لما شاهدوا من إخفاقهم مع علماء المغرب عندما ظنوا أن باستطاعتهم إكراههم وتحويلهم إلى مذهبهم الباطني .

---

(١) المصدر السابق / ١٣٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٥٠ .
(٣) البداية ١١ / ٢٨٤ .
(٤) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٦٨ .

وقد وصف ابن كثير ملوك الدولة العبيدية بأنهم من أنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت في دولتهم البدع و المنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على الساحل.

وقد يثار هنا سؤال: إذا كان هؤلاء العبيديون على مذهب واحد مع القرامطة أو أن هناك صلة مع الحمدانيين لتشيعهم فلماذا يقاتل بعضهم بعضاً؛ فالعبيديون سيَّروا جيشاً لاحتلال حلب، فدافع عنها أبو الفضائل الحمداني، واستنجد بالروم، واستغل قائد الروم هذا التدخل فأخذ حمص وشيزر[1] وهاجم القرامطة مصر ولكنهم أخفقوا وانسحبوا إلى بلادهم في البحرين؟

فالجواب: أن الوجهة العامة في هذا العصر هي الاقتتال على الدنيا، والاستعانة حتى بالأعداء لمدافعة الجيران الطامعين في توسيع رقعة الدولة، فالأخلاق والهمم منحطة حتى لو كانت المذاهب متقاربة.

* * *

(١) الكامل ٩ / ٨٩.

(٢)

البويهيون

تنتسب هذه الأسرة إلى بويه بن فنّاخسرو الديلمي الفارسي، وقد حكمت العراق وفارس لمدة تزيد عن القرن، وكان الخليفة العباسي في بغداد ضعيفاً بإزائهم أكثر مما كان مع الاتراك من قبل، ولا تختلف هذه الأسرة عن أي أسرة أخرى في هذا العصر، من ناحية الاستبداد والفساد الاقتصادي والاجتماعي، وإن كان المؤسسان لهذه الدولة: علي بن بويه والحسن بن بويه فيهما سيادة ومداراة وحلم. ولكن الجيل الثاني والثالث كان فيهم بطش وقسوة وتعصب للمذهب الشيعي، وسنرى في الصفحات القادمة، هل قدموا شيئاً للحضارة الإسلامية؟ أم هي ظاهرة المد الشيعي الذي انحسر بعدئذ وزاد الأوضاع سوءاً؟

لمحة تاريخية:

ظهر أولاد بويه: علي والحسن وأحمد على مسرح التاريخ بظهور أكبرهم علي الملقب (عماد الدولة) عام ٣٢١هـ وكان متولياً من قبل أحد ملوك الديلم واسمه (مرداويج) على منطقة صغيرة اسمها (كرج) ولم يزل يتلطف الناس ويحسن إليهم حتى ا شتهر بين البلاد المجاورة وأحبوه وخضعوا له ونزلوا على طاعته. وساعده في ذلك إخوته حتى استولى على إقليم فارس. وفي سنة ٣٣٤هـ زحف أحمد بن بويه إلى بغداد، ودخلها دون قتال، وغدت العراق تحت سيطرة بني بويه، وأظهروا الطاعة للخليفة، وأخذوا ألقابهم منه، فلقب أحمد (معز الدولة) وبقي حاكماً على العراق نائباً عن أخيه عماد الدولة نيفاً وعشرين سنة (ت ٣٥٦هـ)، وأما ركن

الدولة الحسن بن بويه فقد حكم أصبهان وطبرستان وجرجان، وأخوهم الكبير عماد الدولة: شيراز وما حولها، ولكنه هو المقدم فيهم الذي يسمعون كلامه (ت ٣٣٨هـ).

تشيُّع البويهيين:

لم يُخْفِ البويهيون تشيعهم، بل شجعوا أصحاب مذهبهم في بغداد للقيام بالأعمال الاستفزازية ضد أهل السنة، فكانت لا تمر سنة دون شغب واصطدامات تقع بين السنة والشيعة، تذهب فيها الأرواح والممتلكات وتحرق الدور والأسواق، جاء في حوادث ٣٥١هـ: «وكتب الشيعة في بغداد بأمر معز الدولة على المساجد بلعن معاوية والخلفاء الثلاثة والخليفة العباسي لا يقدر على منع ذلك»[١] وفي سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة، وأن يخرج النساء منتشرات الشعور، مسودات الوجوه، يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي، ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة، ولأن السلطان معهم[٢].

وفي سنة ٣٩٨هـ: «وقعت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة واستنفر بعضهم بعضاً، وقصد الشيعة أبا حامد الإسفرايني وابن الأكفاني فسبوهما وطلبوهما فهربا»[٣].

وفي سنة ٤٠٧هـ وقعت فتنة كبيرة بين السنة والشيعة بمدينة واسط فانتصر السنة وهرب وجوه الشيعة إلى علي بن مزيد فاستنصروه[٤].

---

(١) الكامل ٨/ ٥٤٢.
(٢) الكامل ٨/ ٥٤٩.
(٣) الكامل ٩/ ٢٠٨.
(٤) الكامل ٩/ ٢٩٥.

وقد أنفق عضد الدولة (فنا خسرو) ابن ركن الدولة الأموال الطائلة « وسخر الجنود لتعمير المرقد الشريف في المشهد العلوي »[١] .

إهانتهم للخلفاء :

تابع البويهيون سياسة الأتراك في إضعاف هيبة الخلافة، وجعلها كأنها غير موجودة، وهم بهذا العمل إنما يدللون على بعدهم عن أي حس حضاري زيادة عما في قلوبهم من حقد على السنة، وكانوا يرون أن العباسيين مغتصبون للخلافة، ولذلك فكر معز الدولة بإعادة الخلافة إلى مستحقيها (آل علي) فاستشار خواص أصحابه في إخراج الخلافة عن العباسيين والبيعة للمعز العبيدي في مصر، ولكن أحد أصحابه قال له : « ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه »[٢] . استحسن معز الدولة هذا الرأي وأعرض عن فكرته .

وعندما قلّت الأموال عند بهاء الدولة حسّن له وزيره القبض على الخليفة الطائع وأطمعه في ماله، ودخل بهاء الدولة على الخليفة وأنزله عن سريره، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد وأخذ ما في داره من الذخائر ونهب الناس بعضهم بعضاً[٣] وكان سلفه معز الدولة البويهي هو الذي أهان المستكفي وأمر الجنود بشده من عمامته ثم أمر به إلى السجن ولم يزل فيه حتى وفاته[٤] .

---

(١) المظفري : تاريخ الشيعة / ٢١٢ .
(٢) الكامل ٨ / ٤٥٢ .
(٣) الكامل ٩ / ٧٩ .
(٤) البداية ١١ / ٢٢٦ .

وزراؤهم:

كما وزر للعبيدين اليهود والنصارى كذلك وزر للبويهيين النصارى، ففي عهد عضد الدولة (فنّاخسرو بن الحسن بن بويه) كان وزيره نصر بن هارون وقد أذن له عضد الدولة بعمارة البِيَع والأديرة وأطلق الأموال لفقراء النصارى[1] .

الصلة بين البويهيين والقرامطة:

إن الذي يقرأ التاريخ مجزأً مقطعاً قد لا يدرك ولا يتنبه إلى الصلات التي كانت بين الحركات الباطنية ولا إلى الصلات بين الدولة الشيعية وهذه الحركات، ويظن أن كل دولة قائمة بنفسها ولا تربطها صلات مع الأخرى، وهكذا يظن المغفلون الآن، فلا يرون أن هناك صلات بين الرافضة والباطنية، وإذا كان هناك شيء من هذا فهو للمصلحة السياسية المؤقتة. ويقول هؤلاء المغفلون أيضاً: إن الطلاب المتعلمين من الشيعة في أوروبا غير الشيعة في بلادهم، أو أن رافضة اليوم غير رافضة الأمس، ولكن من يقرأ التاريخ ويقرأ الحاضر ويقارن بينهما سوف لا يجد فرقاً يذكر في المواقف.

جاء في حوادث ٣٦٠هـ: «وفي ذي القعده أخذت القرامطة دمشق وقتلوا نائبها جعفر بن فالح، وكان رئيس القرامطة الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمدّه معز الدولة من بغداد بالسلاح والعدد الكثيرة»[2]

وفي حوادث ٣٧٤هـ أرسل شرف الدولة البويهي رسولاً إلى القرامطة، فلما عاد قال: إن القرامطة سألوني عن الملك فأخبرتهم بحسن سيرته[3] .

---

(١) البداية ١١ / ٣١٥ .

(٢) ابن كثير ١١ / ٢٨٧ .

(٣) الكامل ٩ / ٣٩ .

وكتب الملك البويهي أبو كاليجار إلى المؤيد داعي الدعاة الفاطمي عند سفره إلى مصر سنة ٤٣٨هـ بعد أن تأثر بدعوته الإسماعيلية يقول: فيجب أن تصور لتلك الحضرة الشريفة (المستنصر العبيدي في مصر) ما اطلعت عليه من شواهد صفاء عقيدتنا وتُعلمها أن هؤلاء التركمان (السلاجقة) المسؤولين عن أعمال خراسان والري لا يقصر خطاهم عن بلادها المحروسة (الشام ومصر) إلا ثبات عساكرنا المنصورة في وجوههم، وبذلنا الأموال في كف عاديتهم»(١).

فهذا الملك البويهي يطلب شهادة (حسن سلوك) من الدولة العبيدية في مصر، ويشعرهم في نفس الوقت أنه هو المدافع عنهم أمام الزحف التركماني السلجوقي السني.

موقفهم من حماية حدود الدولة الإسلامية:

استغاث أهل الجزيرة بالعاصمة بغداد لصد غارات الروم، واستجاب الشعب في بغداد لهذا النداء، وتجهزوا للجهاد، وأرسل بختيار ابن معز الدولة إلى الخليفة يطلب مالاً لتجهيز الناس للغزو، واضطر الخليفة لبيع أثاث بيته ليدفع له الأموال، ولكن بختيار أنفقها على مصالحه الشخصية وبطل أمر الغزو»(٢) وهكذا ظهر أن بختيار كان مراوغاً ولم يكن صادقاً في طلب الأموال أو التهيؤ للغزو والجهاد.

البويهيون والإقطاع العسكري:

من بدع البويهيين التي ما سبقهم إليها أحد إقطاعهم الأرض للقادة العسكريين وللجنود، وذلك بدلاً من الرواتب النقدية التي كانت تصرف لهم، وهذه الأرض

---

(١) د. شاكر مصطفى: دخول الترك الغز إلى الشام بحث قدم للمؤتمر التاريخي لبلاد الشام/٣٢٣.

(٢) البداية ١١/٢٨٩.

المعطاة ليست من أراضي الدولة أو من الأرض الموات التي تقطع لإحيائها بل هي من الأراضي المصادرة تعسفاً وظلماً من أصحابها الفلاحين وكان هؤلاء الجنود إذا لم تعجبهم الأرض أو لم تغل عليهم ما يريدون تركوها وأخذوا غيرها، وأدى هذا النظام إلى تدمير الحياة الزراعية وإفقار خزينة الدولة، ولم تحل مسألة الرواتب، يقول الدكتور عبد العزيز الدوري: «والذي أراه هو أن خط البويهيين هو بداية الإقطاع العسكري، ويبدو لي أن البويهيين انطلقوا من نظرة قبلية تعتبر الأرض المفتوحة غنيمة بحق الغزو وأهمل المفهوم الإسلامي بالنسبة للأرض»(١) كما أن بدعة ضمان القضاء بدأت في عهدهم، ففي سنة ٣٥٠هـ أمر معز الدولة بتسمية عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب قاضياً على بغداد على أن يؤدي مائتي ألف درهم في كل سنة(٢).

تقويم:

وهكذا ترى أن هذه الدولة كانت ضغثاً على إبالة، ولم تقدم جديداً للحضارة الإسلامية، وأما كرم وزيرهم الصاحب بن عباد وتشجيعه للأدب وتنظيم عضد الدولة لبعض المشاريع في العراق، وإنشاؤه المستشفى العضدي، كل هذا لا يذكر أمام اتجاه الدولة العام في تمزيق أواصر المجتمع الإسلامي وتخريبه عقدياً واقتصادياً؛ ووصف مؤسسها عماد الدولة بالعقل والحلم لا يغير من النتيجة العامة، وهي أن ضررها أكثر من نفعها، قال الذهبي: «وضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد، وهاجت نصارى الروم، وأخذوا المدائن»(٣).

---

(١) نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية/بحث في مجلة الاجتهاد/٢٥٩

(٢) الحجوي/ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٢/١٤٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٣٢.

(٣)

القرامطة

الحديث عن عقائد القرامطة ليس فيه جديد، فقد كتب عنهم الكثير، وأمرُهم مشهور بين المسلمين، فهم مجاهرون بعقائدهم معلنون بأعمالهم الإباحية لا يتسترون بالتشيع كالعبيديين، ولكن لا بد من لمحة سريعة عن مبتدأ أمرهم ثم أفعالهم القبيحة وصلتهم ببقية الحركات الشيعية أو التي تتستر بالتشيع.

لم يكن ظهور القرامطة غريباً أو مفاجئاً في نهاية القرن الثالث (٢٧٨هـ) فالخطة التي وضعها الملاحدة الباطنيون لضرب الإسلام كانت تقضي بنشر الدعاة في كل مكان يتظاهرون بالتقوى إذا وجد في بيئة سنية تقية، ويتظاهرون بحب الفلسفة إذا وجدوا في بيئة تحب الفلسفة.. ومن هؤلاء الدعاة: **حسين الأهوازي** الذي حلّ بسواد الكوفة واستطاع إغواء الهمج الرعاع، ونقلهم من حال إلى حال حتى وصل بهم إلى مذهب الإباحية والكفر، واستباحة قتل المسلمين، وكان من أشياعه **حمدان قرمط**، فسمي أتباعهم بـ (القرامطة).

وفي سنة (٢٨٦هـ) انتشرت هذه الدعوة الخبيثة في البحرين (القطيف وما حولها) واستجاب لها أبو سعيد الجنابي الفارسي الذي ما لبث أن قاد الجيوش لحرب الخلافة في بغداد وانتصر عليها في أول موقعة له معهم وقتل كل الأسرى. وفي سنة (٢٨٩) امتد نشاطهم إلى بلاد الشام فحاصروا دمشق، وجرت وقائع ومعارك بينهم وبين أميرها (طغج) الذي يتولاها نيابة عن الدولة الطولونية. وما زال أحد رؤسائهم (**زكرويه بن مهرويه**) يفسد الأرض ما بين دمشق وحدود العراق من ناحية الكوفة ويقطع الطرق إلى أن هلك سنة ٢٩٤هـ.

ومن زعماء قرامطة البحرين أبو طاهر الجنابي (سليمان بن حسن) ومن فظائعه الوحشية التي ما بلغها التتار ولا الصليبيون ولا يقوم بها إلا الباطنيون أمثاله أنه في سنة ٣١٢هـ اعترض قافلة للحجاج عائدة إلى العراق فأخذ رواحلهم وما معهم من الزاد والأموال وتركهم في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً[١] .

وفي سنة ٣١٧هـ تعرض الحجاج في المسجد الحرام لهجوم هذا الخبيث الفاجر فقتل من في المسجد وألقى بجثثهم في زمزم، وقتل في طرق مكة وما حولها زهاء ثلاثين ألفاً، وأخذ كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، وخلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر[٢] . قال بكير بن أحمد الحداد : « كأني أنظر إلى الحافظ محمد بن أبي الحسين وقد أخذته السيوف وهو متعلق بيديه جميعاً بحلقتي الباب حتى سقط رأسه على عتبة الكعبة »[٣] .

يقول ابن كثير : « وجلس أميرهم أبو طاهر – لعنه الله – على باب الكعبة وهو يقول : « أنا الله، أنا أخلق الخلق وأفنيهم » ويعقب ابن كثير : « ولم يعجل الله سبحانه وتعالى العقوبة على هؤلاء الملحدين كما عجلها على أصحاب الفيل وهم نصارى، وهؤلاء شر من اليهود والنصارى والمجوس؛ لأن الله سبحانه أراد تشريف البيت إرهاصاً لبعثة محمد ﷺ، ولم تنزل الشريعة بعد، ولو هدمت الكعبة لأنكرت القلوب، أما بعد نزول الشريعة فالله سبحانه يريد من المسلمين أن يدافعوا عنها وأن يعظموه ويصارعوا الكفر وأهله . . »[٤] .

وفي سنة ٣٦٠هـ وصل هؤلاء القرامطة إلى دمشق وأوقعوا بأهلها ما لا عين

---

(١) ثابت بن سنان / تاريخ أخبار القرامطة ٣٨ .

(٢) المصدر السابق / ٥٤ ومدينة هجر عاصمتهم .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٥٣٩ .

(٤) البداية والنهاية ١١ / ١٦٠ .

رات ولا أذن سمعت[1].

محاولتهم لإضعاف الدولة العباسية:

عندما قوي أمر القرامطة وتزعمهم أبو طاهر الجنابي أظهر أهل سواد العراق أنهم على هذا المذهب، وتحزبوا في مدينة واسط وعين التمر، وكانوا يخفون أمرهم من قبل، فقاتلهم الخليفة العباسي وانتصر عليهم[2].

وفي سنة ٣٧٥هـ تملك القرامطة الكوفة حتى أن الملك البويهي حاول التلطف معهم ولكنهم أبوا فقاتلهم وقتل مقدمهم الحسن بن المنذر فرحلوا عن الكوفة[3].

الصلة بين القرامطة والبويهيين:

قرر القرامطة في سنة ٣٦٠ هـ الاستيلاء على دمشق، وذلك بعد أن سيطر عليها جعفر بن فلاح من قبل العبيديين في مصر؛ لأن القرامطة كانوا قد اتفقوا مع أمير دمشق السابق ابن طغج على أن يدفع لهم (٣٠٠) ألف دينار، فلما عزموا على غزو الشام ورئيسهم يومها الحسين بن أحمد بن بهرام، أرسل إلى الملك البويهي بختيار يطلب منه المساعدة فاستجاب له وأرسل ما يطلب[4].

صلة القرامطة بالفاطميين:

لما سمع المعز العبيدي بنية القرامطة في غزو مصر، كتب إليهم كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته، وأن الدعوة واحدة، وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه

---

(١) تاريخ القرامطة / ٥٧.
(٢) الكامل ٨ / ١٨٦.
(٣) الكامل ٩ / ٤٢.
(٤) الكامل ٨ / ٦١٥.

وإلى آبائه من قبله[١] ولكن الحسن بن أحمد بن أبي سعيد لم يستمع إلى هذا الكلام وهاجم مصر ولكنه أخفق ورجع مهزوماً وهلك بمدينة الرملة بفلسطين[٢] وهذا طبيعي وإن كانت الدعوة واحدة فالنفوس صغيرة والتكالب على الدنيا وعلى المناصب هو السائد في هذا العصر.

ضعف القرامطة وانحلال أمرهم:

كانت بداية ضعفهم أنهم دانوا لداعية من دعاتهم في (هجر) التي هي مركزهم الرئيسي، وكان حاقداً عليهم، فكان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله ولكن أبا طاهر اكتشف أمره وقتله بعد أن قتل كثيراً من زعمائهم وقوادهم[٣] ثم جاء المد السني على يد السلاجقة وضعف أمر البويهيين، ثم أمر العبيديين فكان من الطبيعي أن ينجحروا مرة ثانية في مقرهم في (هجر) ثم يتلاشى أمرهم بعدئذ، ولكن آثارهم وعقائدهم لم تنته، فخلف مثلهم في إيران (الحشاشون) يقودهم الحسن بن الصباح.

* * *

(١) الكامل ٨/ ٦٣٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٧٤.

(٣) الكامل ٨/ ٣٥١.

(٤)

بنو حمدان

٣١٧ - ٣٩٤هـ

مثل بقية الدول في هذا العصر التي تقوم على الانقلابات والانتهازية السياسية قامت دولة بني حمدان، فقد شاركوا في كثير من حركات الشغب، وتوصلوا إلى إمارة الموصل والجزيرة وشمال سورية، وكانوا مع الخليفة تارة وتارة ضده، وهذه الأسرة تنتسب إلى القبيلة العربية المشهورة (تغلب) التي كانت منازلها في الجاهلية والإسلام في الجزيرة الفراتية، وأول البارزين في هذه الأسرة هو حمدان بن حمدون التغلبي الذي أيد ثورة الخوارج في الجزيرة فخرج إليهم الخليفة العباسي المعتضد وقاتلهم وانتصر عليهم، وهرب حمدان ولكن بعض العساكر تبعوه، وضاقت عليه الأرض فعاد مستجيراً، فأخذه المعتضد وحبسه[١].

وفي عهد المكتفي ولّى الموصل وأعمالها لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون واشترك أبو الهيجاء في أعمال الشغب والانقلابات على الخليفة العباسي المقتدر، وقتل في هذه الحوادث ثم عين ابنه الحسن بن أبي الهيجاء والياً على الموصل، وأما أخوه علي بن أبي الهيجاء (سيف الدولة) فقد تغلب على حلب واتخذها عاصمة له منذ سنة ٣٣٣هـ. وقد دافع عن حدود بلاد الشام الشمالية بمواجهة الروم دفاعاً مجيداً، وقاد الحملات لتأديبهم، قال عنه ابن كثير: «أحد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٤٣٤ .

الأمراء الشجعان والملوك الكثيري الإحسان على ما كان فيه من تشيع»[١] وكانت الوقائع سجالاً بينه وبين الروم فحوادث ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٣هـ تسجل انتصارات رائعة لسيف الدولة على الروم وقد سجل هذه البطولات الشاعر المتنبي في قصائده المشهورة.

ولكن هذه الدولة لم تتوصل إلى الحكم إلا بعد سفك الدماء ونهب الأموال (كما هو حال أكثر الدول يومها واليوم).

وفي الغالب أن مؤسسي مثل هذه الدول يكون فيهم صفات حسنة مثل الشجاعة وحب العلم، وقد ظهرت هذه الصفات في (سيف الدولة) كما أن هذه الدولة فيها تشيع ولكنه تشيع الأعراب الذين لا يتعمقون كثيراً في فلسفة الأشياء أو الغلو في مبدأ من المبادئ، ولكن هذا التشيع جعل صلاتها بالدول الشيعية الأخرى صلات جيدة، ففي سنة ٣٥٨هـ أرسل أبو تغلب ابن حمدان إلى القرامطة بهجر هدايا جميلة قيمتها خمسون ألف درهم[٢]، ولم يتوقف الأمر عند الهدايا، بل وصل إلى المساعدة الفعلية لهم فقد قصد القرامطة مدينة طبرية ليأخذوها من يد الأخشيد صاحب مصر والشام، وطلبوا من سيف الدولة أن يمدهم بحديد يتخذون منه سلاحاً، فقلع لهم أبواب الرقة وأخذ لهم من حديد الناس حتى أخذ أواقي الباعة والأسواق وأرسل بذلك كله إليهم[٣].

ويصف ابنُ الأثير الحسينَ بن حمدان الذي شارك في المؤامرة على المقتدر والبيعة لابن المعتز يقول: على شدة تشيعه وميله إلى علي وأهل بيته يسعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوه في النصب[٤] وعندما وقع القتال بين

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢٨١.
(٢) الكامل ٨ / ٦٠٠.
(٣) ابن كثير ١١ / ٢٧٠.
(٤) الكامل ٨ / ١٨.

صاحب ديار بكر أبي علي بن مروان وبين الحمدانيين أسر الحسين بن حمدان وضيق عليه إلى أن كتب صاحب مصر (العبيدي) وشفع فيه فأطلقه ومضى إلى مصر وتقلد منها ولاية حلب[1].

كما أن هذه الدولة وإن انتعشت زمن علي بن عبد الله بن حمدان (سيف الدولة) إلا أنها بعد وفاته رجعت كباقي دول المنطقة، قتالاً وتناطحاً على الحكم، حتى إن ابنه أبا المعالي كان يدفع الجزية لملك الروم؛ وبعد وفاة أبي المعالي وتملك ابنه سعيد أبي الفضائل استنجد بملك الروم ثلاث مرات لرد عادية القادة الأتراك المتمردين[2].

* * *

---

(١) الكامل ٩ / ٧٢.

(٢) محمد عزة دروزة: العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ١ / ٦٨.

(٥)

الأسديون في الحلة

٤٠٣ - ٥٤٥ هـ

بتأثير هذا المد الشيعي كانت قبيلة عربية أخرى تقيم إمارة صغيرة لها في مدينة (الحلة) غربي بغداد ولكن هؤلاء الأمراء من بني أسد لم يكتفوا بإمارتهم بل شاركوا في أحداث الدولة العباسية، من إثارة الفتن والمشاكل على الخليفة، كما شاركوا في الانقلابات السريعة التي تحدث عند جيرانهم من الدول الصغيرة.

أسس هذه الإمارة أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي، وقد ذُكِرَ في حوادث سنة ٣٨٧ هـ بصفته أميراً لقبيلة عربية له شأن وتحسب الدول المجاورة له حساباً، واعترف البويهيون بإمارته سنة ٤٠٣هـ وجاء بعده سنة ٤٠٨هـ ابنه دبيس وفي عهده أصبحت هذه القبيلة ذات شأن كبير في أحداث العراق، فكان يتدخل في صراعات البويهيين فيما بينهم، أو بين البويهيين والدول المجاورة، كما دخل في صراع مع القبائل الأخرى كبني خفاجة.

ومن أشهر زعماء هذه القبيلة صدقة بن منصور بن دبيس الذي ورث عن جده التدخل في كل فتنة، فحشر نفسه في القتال بين أحفاد ألب أرسلان السلجوقي، ويكون مع الأقوى دائماً، وقد قتل في إحدى هذه الفتن، وهو الذي بنى مدينة (الحلة) وكانوا من قبل يسكنون الخيام، وسار على منواله ابنه دبيس حتى أُرغم على الجلاء عن الحلة فذهب إلى الشام وساعد الروم في حصار حلب على شرط أن يتملكها بعد الانتصار على المسلمين، ولكن الحملة أخفقت وعاد دبيس إلى الحلة

فاعتقل وقتل من قبل السلطان مسعود السلجوقي، وانتهت هذه الدولة عام ٥٥١ هـ عندما أمر الخليفة بترحيل بني أسد عنها لكثرة فسادهم[١].

وتعاونت هذه الدولة مع أرسلان البساسيري الداعي إلى طاعة العبيديين في مصر، وقد كان مملوكاً تركياً من مماليك بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهي، ثم ترقى به الأمر إلى أن أصبح من القواد المشهورين، ثم إنه كاتب حكام مصر ليكون عوناً لهم على أخذ بغداد. وساعده في ذلك دبيس بن مزيد. وتنمر البساسيري ودخل بغداد وخطب في جامع المنصور للمستنصر العبيدي، وتلقاه أهل الكرخ الرافضة وسألوه أن يجتاز من عندهم[٢]، وأمر فاذن بـ (حي على خير العمل) وذلك سنة ٤٥٠هـ ونهب دار الخلافة، وأرسل إلى مصر يعرفهم بما حصل له في بغداد، ولكن وزير العبيديين لم يأبه له ولم يهتم به، وكان يكرهه، ثم لم يطل الأمر بالبساسيري حتى جاء السلطان السلجوقي طغرل بك ودخل بغداد وأرسل جيشاً قوامه ألفا فارس يلاحق البساسيري في الكوفة وما حولها، واستطاع الظفر به وقتله[٣]، فالأسديون لتشيعهم ساعدوا هذا المارق، كما ساعدوا الروم ضد المسلمين.

* * *

---

(١) محمد عزة دروزة: العرب والعروبة ٥ / ٣٢.
(٢) الكامل ٩ / ٦٤٨.
(٣) الكامل ٩ / ٦٤٨.

(٦)

الصليحيون في اليمن

٤٢٩ - ٤٩٢ هـ

ليس غريباً أن توجد في اليمن دولة تدعو إلى العبيديين في القاهرة، فالداعية أبو عبد الله الشيعي الذي أسس الملك للعبيديين كان داعية في اليمن وخرج إلى الحجاز ومنها إلى شمال أفريقيا، فالدعوة موجودة، وهناك من يبثها بأساليبهم المعروفة في استغواء أصحاب الشبهات والشهوات.

تأثر بهذه الدعوة علي بن محمد الصليحي وهو في الأصل من أسرة سنية والده من قضاة اليمن، وكان الذي أغواه واستماله عامر بن عبد الله الزواحي، وقد توسم فيه النجابة فأوصى أن يكون الصليحي خليفة بعده، وصدق ظن الزواحي، ففي سنة ٤٢٩هـ تجمع الصليحي مع أصحابه الذين أغواهم على رأس جبل مسار، وبنى حصناً عليه.

ثم بدأ يستفحل أمره ويأخذ البلاد ويدعو للمستنصر في مصر، وفي سنة ٤٤٥هـ ملك اليمن كلها، واستقر حاله في صنعاء بعد أن قتل صاحب تهامة، وكان لزوجته أسماء بنت شهاب شأن كبير في دولته.

وفي سنة ٤٥٩هـ خرج الصليحي لإخضاع الحجاز للدولة العبيدية، فتربص به سعيد بن نجاح ـ وهو ابن صاحب تهامة المقتول ـ وساعده بعض القبائل واستطاعوا الفتك بالصليحي.

ضعفت الدولة بعد مقتل علي بن محمد الصليحي وإن استمرت فترة بواسطة ابنه أحمد مع أن الحكم الفعلي كان لزوجته أروى التي استقلت بالحكم عام ٤٧١هـ، وكانت تلقب بـ (الحرة) ويخاطبها المستنصر العبيدي بـ (الحرة السديدة)، وبعد سنة ٥٢٥هـ استقلت زبيدة وصعدة، وانقرضت الدولة الصليحية(١) وأراح الله المسلمين منها.

* * *

(١) انظر في ترجمة الصليحي: وفيات الأعيان ٣/ ٤١١ وظهور خلافة الفاطميين للدكتور عبد المنعم ماجد/ ٢٠٠.

(٧)

نتائج ودروس

بعد هذا الاستعراض للدول التي نبتت في القرن الرابع وما يليه نصل إلى النتائج التالية :

أولاً :

تعاونت هذه الدول فيما بينها، وإن بدا لمن يرى ظاهر الأمر أن ليس بينها تعاون أو صلة، والذي يدرس التاريخ دون أن يكون مُلماً بعقائد الشيعة وخفاياهم، وكيف يتصرفون، وكيف يتعاملون لا يدرك هذه الأمور، ولا يصل إلى نتائج صحيحة في حكم أو تعليل لظواهر التاريخ؛ فقد صعب على كثير من الساسة في العصر الحديث، والذين لم يتعمقوا في دراسة العقائد والملل والنحل، صعب عليهم أن يدركوا : لماذا الدولة الرافضية الفلانية تساعد الدولة الباطنية العلمانية رغم اختلاف الشعارات التي ترفع، ولم ينتبهوا إلى العقلية التي يفكر بها هؤلاء. وصعب عليهم أن يعللوا كيف تنجح امرأة كرئيسة للوزراء في بلد يرفع شعار الإسلام وهي شيعية علمانية في نفس الوقت، والشيعة يساعدونها ويمدونها، وعندهم لا تعارض في ذلك فهي ما دامت شيعية فلا بد أن تساعد .

ولم يجد هؤلاء الساسة تفسيراً لتعاون دولة الرافضة والباطنية مع إسرائيل، ولو قرأوا التاريخ لوجدوا أن دبيس بن صدقة الأسدي يهرب إلى الروم ويحاصر معهم مدينة حلب ليحكمها بعدئذ، ولوجدوا أن اليهود والنصارى كانوا وزراء في حكومة العبيديين الباطنيين .

ثانياً:

هذه الدول أو أكثرها قام على أكتاف السنة، ولو أن هؤلاء لم يساعدوا على قيامها، أو لو أنهم قاوموها لانهارت بأقرب فرصة، ولكن غفلة عوام السنة تجعلهم ألعوبة بيد أعدائهم، يضربون بهم، ويقيمون العروش على أكتافهم، فقبائل كتامة لم تكن شيعية أو إسماعيلية قبل أن يتلاعب بهم أبو عبد الله الشيعي، وهم الذين أقاموا الدولة العبيدية، والبويهيون حكموا بغداد عاصمة الخلافة وكان من العلماء والوزراء السنة من يعمل معهم ويساعدهم.

ثالثاً:

إن بدايات بعض هذه الدول كانت بالأطراف والأماكن التي يسود سكانها الجهل بالسنة، وأما من جاء بعدهم من الفرق الباطنية فسيختارون الجبال والأماكن الوعرة البعيدة عن مراكز السنة، وهذا وذاك يدل على تخطيط وتدبير مسبق لمثل هذه الأمور مما يحتم على أهل الإسلام الانتشار بالدعوة في كل المواقع حتى لا تبقى مناطق خالية يتسلل منها الأعداء عندما تحين الفرصة المناسبة.

رابعاً:

كان هذا المد جارفاً قوياً وبعض هذه الدول عمّر طويلاً، ولكنها نبتة لا جذور لها، فهي تصعد بسرعة وتنتفش وتعلو ولكن إذا سقطت فإنها لا تستطيع العودة، ولا أحد يترحم عليها، فما أن بدت ملامح عودة دولة سنية قوية حتى تحول المسلمون سراعاً إليها، وأسقطوا شعارات ولافتات الدول السابقة، وكأنهم كانوا بانتظار هذه اللحظات بفارغ الصبر.

* * *

الفصل الثالث

بشائر العودة

١ـ الخلفاء العباسيون وإظهار السنة .

٢ ـ بروز دول سنية قوية .

٣ ـ بناء المدارس والاهتمام بالعلم .

٤ ـ الإحساس بالخطر الباطني .

٥ ـ التراجع عن تأييد الشيعة وفرح الناس بعودة السنة .

(١)

الخلفاء العباسيون وإظهار السنَّة

تتمثل بداية العودة في أمور كثيرة منها العلمي ومنها السياسي أو الجهادي، وقد يكون تأثير هذه العوامل مباشراً أو غير مباشر فلا يظهر إلا بعد لأْيٍ، بل بعد عشرات السنين.

وأول هذه البوادر محاولة بعض الخلفاء العباسيين إظهار السنة والتأكيد عليها، وتأليف رسائل في ذلك وقراءتها على الناس.

ففي خلافة القادر بالله عام ٤٠٨هـ استتاب هذا الخليفة فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرأوا من الاعتزال والرَّفض والمقالات المخالفة للإسلام[١].

وفي سنة ٤٢٠هـ جُمع القضاة والعلماء وقرئ عليهم كتاب جمعه القادر بالله وفيه الرد على أهل البدع وعزل خطباء الشيعة[٢] وامتثل السلطان محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك، واستنَّ بسنته في عقوبة المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم كما أحرق كتب الفلسفة[٣].

* * *

(١) الكامل ٩ / ٣٠٥، وانظر: شرح اصول اعتقاد أهل السنة للالكائي / ٧٥.
(٢) ابن كثير: البداية ١٢ / ٢٨.
(٣) البداية ١٢ / ٧.

(٢)

بروز دول سنية قوية

١ ـ محمود الغزنوي

(٣٦٠ - ٤٢١هـ)

ظهر بالمشرق في نهاية القرن الرابع دولة سنية قوية بزعامة محمود بن سبكتكين الذي كان في بدء أمره يتولى نيسابور من قبَلِ الدولة السامانية، وكان والده سبكتكين من الأمراء الكبار وكان مولى للأمير أبي إسحاق صاحب (غزنة) ولما مات مولاه لم يترك أحداً يصلح للملك فاصطلح الجيش على مبايعة سبكتكين لصلاحه فيهم وحسن سيرته وكمال عقله، ولما توفي تولى الملك بعده ابنه محمود واستولى على خراسان، وأزال الدولة السامانية، وخطب للخليفة ببغداد .

اتجه محمود بعد ذلك للجهاد وترك القتال على الملك، بل أراد أن يكفر عن الأخطاء السابقة، وكانت أول غزواته سنة ٣٩٢هـ[١] إلى الهند، وانتصر فيها على ملكها (جيبال) وغزا بعدها الهند أكثر من عشر غزوات، وكسر صنمهم الأكبر (سومنات) سنة ٤١٦هـ. ودانت الهند لحكم الإسلام، وعمل على نشر الدعوة فيهم .

قال ابن كثير في ترجمته: «الملك الكبير، المجاهد الغازي أبو القاسم صاحب

---

(١) الكامل ٩ / ٣٩٢ .

بلاد غزنة وما والاها، فتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند لم يتفق لغيره من الملوك لا قبله ولا بعده، وغنم مغانم كثيرة، وكان مع هذا في غاية الصيانة والديانة وكراهة المعاصي وأهلها، كان يحب العلماء والمحدثين، ويحب أهل الخير والدين»[١].

وعندما حاول الفاطميون في مصر إغراءه بالهدايا كي يقيم الدعاية لهم في بلاده، أحرق كتبهم وهداياهم[٢]، وقتل (التاهرتي) مندوبهم للدعوة، وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي وقال: كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين[٣]. وعندما ملك الري كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر أنه وجد لمجد الدولة البويهي من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأة ولدن له نيفاً وثلاثين ولداً، ولما سئل عن ذلك قال: هذه عادة سلفي. وصلب من أصحابه الباطنيين خلقاً كثيراً، ونفى المعتزلة إلى خراسان وأحرق كتب الفلسفة والنجوم[٤].

توفي هذا الملك المجاهد عام ٤٢١هـ واستمرت دولته في غزنة فترة طويلة، وكان حفيده مثله في جهاد الهنادكة، واستمرت الهند تحت حكم المسلمين بعد فتح الغزنوي لها إلى القرن الثالث عشر الهجري حين تحكم فيها الإنكليز ونقلوا السلطة الى الهنادكة بعد رحيلهم.

* * *

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ / ٣٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ / ٣٢.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان.
(٤) الكامل ٩ / ٣٧٢ البداية والنهاية ١٢ / ٢٨.

٢ ـ السلاجقة

اتجهت الدولة الغزنوية للفتوحات في الهند، ولكن دولة السلاجقة اتجهت غرباً فأنقذت العاصمة بغداد من الدولة البويهية وأنقذت الخليفة العباسي من حركة البساسيري المؤيد للدولة العبيدية في القاهرة. وامتدت دولة السلاجقة إلى بلاد الشام وجاورت الروم في الأناضول وتجاوزت شرقاً إلى بلاد ما وراء النهر في سمرقند، فهي التي قصمت ظهر الرافضة والباطنية في العراق وخراسان.

كان أول ظهور لهذه الدولة عام ٤٣٠هـ، وتنتسب إلى سلجوق الذي كان من قواد ملك الترك الكافر، ثم إنه تخوف من هذا الملك فهرب إلى بلاد الإسلام وأسلم، وجاء ابنه ميكائيل فاعتنى بقتال الكفار من الأتراك، وقتل في إحدى معاركه معهم، وقد خلف ميكائيل محمد (طغرل بك) وداود (جغري بك) وهما اللذان أسسا ووطدا ملك السلاجقة[١].

وفي عهد طغرك بك استولوا على خراسان ووصلوا العراق، ودخلوا بغداد بعد أن استغاث بهم الخليفة لدرء خطر القائد البساسيري، وبدخوله بغداد عام ٤٤٧هـ سقطت دولة البويهيين الشيعية، وقضى بعدها على فتنة البساسيري، وفي عام ٤٤٨هـ أزيل ما كان على أبواب المساجد من سب الصحابة، وأمر رئيس الرؤساء بقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض[٢]، وبعد وفاة طغرل بك تولى الملك ابن أخيه محمد بن داود (ألب أرسلان) وفي عهده بلغت الدولة أقصى اتساعها وأعادت للمسلمين عزهم المفقود، وأرجعت لهم الانتصارات

---

(١) البداية ١٢ / ٥١.

(٢) البداية ١٢ / ٧٣.

الكبيرة، فمعركة (ملاذكرد) بين ألب أرسلان والقائد الروماني (أرمانوس) كانت انتصاراً ساحقاً على الروم لم يسمع به المسلمون منذ زمن بعيد، مع أن جيش الروم كان أضعاف جيش المسلمين[١].

ومن حسنات ألب أرسلان أنه عندما سار إلى حلب طلب حضور صاحبها محمود بن مرداس بين يديه، فحاول محمود المراوغة وقال للسفير بينهما، وهو الشريف طراد الزينبي: قل للسلطان إن محموداً لبس الخلعة العباسية وخطب لهم، فقال السلطان أرسلان: أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون بـ (حي على خير العمل) لا بد من حضوره[٢].

وفي سنة ٤٦٢هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر (العبيدي) وترك الأذان بـ (حي على خير العمل) فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له: إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار.

قال عنه ابن الأثير: وكان ألب أرسلان عادلاً كريماً عاقلاً، كثير الصدقات[٣].

---

(١) الكامل ١٠ / ٦٤، وقال ابن كثير: وفي سنة ٤٦٣هـ أقبل أرمانوس في جحافل مثل الجبال من الروم والفرنج، فالتقاه ألب أرسلان في عدد قليل وهم قريب من عشرين ألفاً، وخاف السلطان كثرة العدو، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة حين يدعو الخطباء للمجاهدين، فلما توافق الفريقان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله ومرغ وجهه في التراب ودعا الله فأنزل الله نصره على المسلمين وأسر ملك الروم. البداية ١٢ / ١٠٧.

(٢) الكامل ١٠ / ٦١.

(٣) الكامل ١٠ / ٧٤.

وفي عهد ملكشاه بن ألب أرسلان حافظت الدولة على قوتها واتساعها، ولكنها كبقية الدول تجمع بين العاطفة الدينية وحب الملك والسيطرة وقهر الناس، إلا أن من حسناتها أنها بذرت بذرة لم تظهر آثارها وثمارها إلا فيما بعد، كان وزيرهم القدير الحسن بن علي الملقب بـ (نظام الملك) هو الذي أشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة، ومن هؤلاء آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي وُلِّيَ على حلب وديار بكر والجزيرة قال عنه ابن كثير: «من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة»[1] وقام ولده عماد الدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيدو الوحدة في العالم الإسلامي»[2].

وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة ٥٢٠هـ قتله الباطنيون وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل. قال عنه ابن الأثير: «وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً»[3].

ويحدثنا المؤرخ أبو شامة عن آثار السلاجقة فيقول: «فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لا سيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها»[4].

---

(١) البداية والنهاية ١٢ / ١٥٧.

(٢) ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية ٤ / ٩.

(٣) الكامل ١٠ / ٦٣٣.

(٤) الروضتين في أخبار الدولتين / ٣١.

ونظام الملك هو الذي شجع بناء المدارس لطلبة العلم؛ ففي عام ٤٥٩هـ فرغ من عمارة المدرسة النظامية في بغداد، وأسس المدارس في نيسابور وغيرها من البلدان، وقد سرى هذا الاتجاه في بناء المدارس السنية إلى مصر وهي تحت النفوذ العبيدي الباطني «فقد أنشأ أبو الحسن علي بن السلار وزير الظافر سنة ٥٤٤ هـ مدرسة وجعل رياستها للحافظ السِلْفي، وكانت المدرسة الوحيدة للشافعية في الإسكندرية كما أنشئت المدرسة العوفية سنة ٥٣٢ هـ وعلى رأسها الفقيه المالكي ابن الطاهر بن عوف، ومن أغراض هاتين المدرستين الوقوف في وجه المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني»[١].

تفقه (نظام الملك) على المذهب الشافعي، وسمع الحديث واللغة، وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء، حيث يقضي معهم جُلّ نهاره، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، ومن حسناته أنه أسقط المكوس والضرائب، وكان يكرم العلماء الذين ينصحونه ويشددون في النصيحة[٢]، وصفه المؤرخ أبو شامة فقال: «كان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحب أهل الدين، وأما صدقاته ووقوفه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة لم تخل بلد منها، حتى جزيرة ابن عمرو التي هي في زاوية من الأرض بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وكان يحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة[٣]، وقد شهد أبو بكر الطرطوشي آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة، وأشاد بذكرها في كتابه (سراج الملوك) وذلك عندما رحل إلى بغداد.

---

(١) د. محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي/١٠٨.

(٢) الكامل ١٠/٢٠٩.

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين ١/٢٥.

خرج هذا الوزير مع السلطان ملكشاه من أصبهان قاصداً بغداد في مستهل رمضان ٤٨٥هـ وفي اليوم العاشر عندما اجتاز قرية قرب نهاوند جاءه صبي باطني في هيئة مستغيث به، فلما قرب منه ضربه بسكين وهرب ولكنه أخذ وقتل، مكث الوزير ساعة ثم مات، رحمه الله، وقد قتل الباطنية ابنه فخر الملك سنة (٥٠٠ هـ) أيضاً[١].

* * *

(١) البداية والنهاية ١٢ / ١٥٠.

(٣)

الاهتمام بالعلم

كان من أثر اندحار الرفض والمذاهب الباطنية أن قويت شوكة الاتجاهات العلمية الإصلاحية عند أهل السنة، وظهر تياران علميان سيكون لهما الأثر الكبير في تقوية هذه الاتجاهات .

كان الإمام الماوردي الشافعي (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) من العلماء الذين شعروا بالمشكلة لتي يعاني منها المسلمون قبل بروز التيارات الإصلاحية في عهد السلاجقة وما تلاه، وكان كتابه (أدب الدنيا والدين) يعالج مشكلة دقيقة في حياة المسلمين وهي : كيف نجمع بين الدين والدنيا في توازن فلا تطغى الدنيا على الدين ولا تهمل بالكلية وقد شوش الصوفية على المسلمين هذا المفهوم، يقول الماوردي : « لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيها اختلالها، ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثراً »[١] كما ألف الماوردي في (الأحكام السلطانية) لمعالجة مشكلة الحكم . .

ثم برزت المدرستان الشافعية والحنبلية اللتان مهدتا للعودة إلى أجواء الجهاد والإصلاح الإسلامي الذي بدأه عماد الدين زنكي .

---

(١) أدب الدنيا والدين / ٢٠٠ ط دار إحياء العلوم ـ بيروت بتحقيق السقا .

المدرسة الشافعية:

نشأ تيار هذه المدرسة من خلال المدارس النظامية التي درّس فيها أمثال أبو إسحق الشيرازي وأبو عبد الله الطبري، ومن أبرز علمائها الذين عاشوا واقع عصرهم واهتموا بمشكلاته إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، وكتابه (غياث الأمم في الْتياث الظلم) من كتب السياسة الشرعية التي تبحث في مشكلات المسلمين الواقعية، ولا توصلها نظرياً فقط، ومن تلامذة الجويني: أبو حامد الغزالي[1] والكيا الهراسي، وقد ألف الغزالي كتابه (إحياء علوم الدين) وفي نيته أن هذا من أسباب إصلاح أحوال المسلمين، ولكن مع الأسف جاء هذا الكتاب محشواً بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص غير المعقولة من شطحات الصوفية، والكلام الفاسد من الفلاسفة، ومع ذلك ففي كتابه نظرات إصلاحية من خلال إصلاح النوايا والقلوب، وقد أخذ عليه أنه لم يذكر شيئاً عن الجهاد مع أنه ألف الكتاب إبان الحروب الصليبية واحتلالهم لبلاد الشام، والاعتذار بأنه كان يعلم أخطار الصليبيين ولكنه اتجه إلى إصلاح القلوب هذا لا يسوغ أبداً ما وقع فيه، ولكن الصوفية لا يركزون على الجهاد في الغالب.

إن بحوث الغزالي في النفس الإنسانية بحوث جيدة، وكان لها أثر كبير في واقع المسلمين، يقول منتقداً حال العلماء؛ لأنه يرى أنه إذا صلح العلماء صلح الحكام وصلحت الرعية: «أما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لما تساعد أقوالُهم أحوالَهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم

---

(١) قال ابن كثير في ترجمته: محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تفقه على إمام الحرمين، وكان من أذكياء العالم، ساد في شبيبته، ودرس بالنظامية، وحضر عنده رؤوس العلماء منهم أبو الخطاب، وابن عقيل، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه (البداية ١٢/١٨٥) وبسبب ذكائه يقول عنه ابن تيمية إنه كثير التقلب بين المذاهب، وتأثر بكتب الفلاسفة، ثم رجع في آخر حياته ليقرأ البخاري ومسلم.

لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرذال فكيف على الملوك والأكابر»[1] ويعيب على العلماء كيف انجروا إلى الجدل وبحث المشكلات التي ليست لها علاقة بحاجات العصر، يقول: فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد في الوقائع، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاء المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها، بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر[2]، وحبهم للجدليات جعلهم يدرسون الفقه ويتركون ما عداه من العلوم الأخرى التي يحتاجها المجتمع الإسلامي: «والفطن يعلم أنه لو كان غرضه (طالب العلم) أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدَّم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثير من فروض الكفايات، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء في أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، وهل لهذا سبب، إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقات والوصايا وحيلوة مال الأيتام وتقلد القضاء، والتقدم على الأقران؟»[3].

ويعالج بعض أمراض المجتمع فيذكر نفسيات الأغنياء أرباب الأموال، فيقول: «**صنف** حرصوا على بناء المساجد والمدارس والأربطة والقناطر وكتبوا أسماءهم عليها؛ وقد اغتر هؤلاء من وجهين: الأول: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الرشاوى والظلم والنهب، والثاني: أنهم ربما اكتسبوا المال من الحلال ولكنهم في التركيز على بناء المساجد أصابهم داء الرياء وحب الثناء، **وصنف** يحرصون على إنفاق المال في الحج وربما تركوا جيرانهم جياعاً، **وصنف** يشتغلون بكنز الأموال

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٤٢.
(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٤٣ ط دار الندوة الجديدة.
(٤) المصدر السابق ١ / ٢١.

بحكم البخل ويشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل »[١].

والحقيقة أن الغزالي هنا وفي نظراته الاجتماعية إنما يمتح من معين إستاذه أبي المعالي الجويني الذي كتب في السياسة الشرعية موضحاً مهمة الدولة الإسلامية، ومهمة العلماء والولاة، وله اهتمام خاص بأمور الأمة وإصلاحها وأمور العدل والأموال وفصل ذلك في كتابه (غياث الأمم في الْتياث الظُّلَم) وقد وضح دور العلماء وأنهم هم المتبوعون في الأصل، يقول مخاطباً نظام الملك وزير السلاجقة[٢]: « ومما ألقيه إلى المجلس السامي وجوب مراجعة العلماء فيما يأتي ويذكر، فإنهم قدوة الأحكام، وأعلام الإسلام، وورثة النبوة وقادة الأمة، وهم على الحقيقة أصحاب الأمر استحقاقاً، وذوو الخبرة (الأمراء والولاة) مأمورون بارتسام مراسمهم »[٣].

ويؤكد أن السلطان إذا لم يبلغ مبلغ الاجتهاد فالمتبوعون العلماء، والسلطان نجدتهم وشوكتهم « والسلطان مع العالم كملك في زمان نبي »[٤] وإذا جاء زمان

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٩٧، وقد اطلعت بعد إنجاز أكثر هذا الكتاب على ما كتبه الدكتور ماجد عرسان الكيلاني (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) - والبعد والسفر لا يساعدان على متابعة كل ما يصدر من المنشورات العربية - ورغم أن ما كتبه الدكتور الكيلاني مهم ومفيد فإننا لا نوافقه على تضخيم دور أبي حامد الغزالي في الإصلاح؛ لأن الفكر الصوفي بطبيعته لا يستطيع أن يكون عطاء قوياً في مجال التجديد والإصلاح، ولو قلنا المدرسة الشافعية لكان أقرب للصواب، وكذلك المدرسة الحنبلية وليس عبد القادر الجيلاني.

(٢) يظهر إمام الحرمين احتراماً كبيراً لهذا الوزير لما يجده فيه من الكفاية والتدين وتشجيع العلماء وقمع الباطنيين.

(٣) الغياثي ٣٧٩ تحقيق د عبد العظيم الديب ط٢/١٤٠١هـ.

(٤) المصدر السابق ٣٨٠.

لا يوجد فيه إمام وسلطان ذو كفاية؛ فالأمور موكولة إلي العلماء، وحق على الخلائق على اختلاف طبقاتهم أن يرجعوا إلى علمائهم...»[1].

انتعشت المدرسة الشافعية بأمثال الجويني والماوردي وأبي إسحاق الشيرازي، وظهر بعدئذ من علمائها شخصيات كبيرة كان لهم دور في سياسة الدولتين النورية والصلاحية، من أمثال القاضي الشهرزوري الذي تفقه بالمدرسة النظامية في بغداد[2]، وابن أبي عصرون، والفقيه الأمير عيسى الهكاري، وسنتكلم عنهم إن شاء الله في محله.

ومن العلماء البارزين الذين أخذ عنهم السلطان صلاح الدين المحدث أبو طاهر السِّلْفي أحمد بن محمد الأصبهاني، الذي ورد بغداد واشتغل بها على الكيا الهراسي في الفقه[3] وكذلك العالم الأندلسي أبو بكر الطرطوشي الذي دخل بغداد وتفقه على يد أبي بكر الشاشي، وكان الطرطوشي عالماً إماماً زاهداً توفي بالإسكندرية[4].

المدرسة الحنبلية:

كان للحنابلة دور بارز في التمسك بعقيدة السلف التي تلقوها عن العلماء السابقين وهي العقيدة التي دافع عنها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وعندما تحدثنا عن أوائل القرن الرابع الهجري وذكرنا دورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت لهم مدارس في بغداد، تربى فيها كثير من العلماء والوعاظ كالشيخ

---

(١) المصدر السابق ٣٩١.

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٤٢.

(٣) ابن خلكان ١ / ١٠٥ والكيا الهراسي من تلاميد الجويني.

(٤) ابن خلكان ٤ / ٢٦٢.

أبو الوفا بن عقيل[1] والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الإمام الحافظ الواعظ، وكان لهم تأثير في رجوع الناس إلى الدين، ومدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي التي تولاها عبد القادر الجيلاني[2] تحولت إلى مأوى لطلبة العلم، فكبار علماء بلاد الشام يرحلون إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلي وللاتصال بهذه المدرسة. جاء في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي: «ارتحل هو والموفق إلى بغداد سنة ٥٦٠ هـ فأنزلهما الشيخ عبد القادر عنده في المدرسة وأكرمهما وأسمعهما، واشتغلا على الشيخ ابن الجوزي»[3]، هؤلاء المقادسة أبو عمر وأخوه، وابن خالهم عبد الغني والشيخ العماد كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج، وقد حضروا معه فتح القدسُ[4].

ومن الشخصيات المهمة في حياة صلاح الدين الواعظ علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي، قدم بغداد وتفقه فيها وسمع الحديث، ثم رجع إلى بلده دمشق وكانت له حظوة عند صلاح الدين وهو الذي ساعده على كشف مؤامرة العبيديين في مصر.

* * *

---

(١) شيخ الحنابلة في وقته، حسن المناظرة، له مصنف «الفنون» الذي يزيد على أربعمائة مجلد. انظر عن علماء الحنابلة: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن حسن الحموي ٢ / ٣٥٩.

(٢) من الوعاظ المشهورين ولد عام ٤٧٠هـ وتوفي عام ٥٦١ هـ وهو حنبلي فقهاً، قوي في وعظه، ولكنه يأتي بكلام الصوفية، وابن تيمية يمدحه ولكن ما في كتبه مثل (الفتح الرباني) أشياء كثيرة تخالف ما عليه السلف، قال ابن كثير: «له أحوال صالحة، ولأتباعه فيه مقالات أكثرها مغالاة» البداية والنهاية ١٢ / ٢٧١.

(٣) ابن خلكان ٤ / ٢٦٢.

(٤) البداية ١٣ / ٦٥ والمقصود بأبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي.

(٤)

الإحساس بالخطر الباطني

وبدء انحداره

شعر الناس بخطر الباطنية، كما شعر الحكام بذلك، وبدأت حملات متتابعة لاقتلاع جذورهم؛ لأنهم مصيبة أصابت العالم الإسلامي يومئذ، ولا يزالون يقومون بدور المخرب من داخل البيت، ومن الحوادث التي شعر فيها الحكام بخطرهم وجردوا الحملات لاقتلاع جذورهم أو تراجعوا عن تأييدهم ما يأتي:

في سنة ٤٣٦هـ أوقع صاحب بلاد ما وراء النهر (بغراخان) بطائفة الإسماعيلية الذين دخلوا بلاده للدعوة للعبيديين في مصر، فقتلهم كلهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها وسلمت تلك البلاد منهم[١].

وفي ٤٦٣هـ خطب محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان؛ وذلك لما رآه من إقبال دولة السلطان وقوتها وانتشارها.

وفي ٤٩٤هـ أمر السلطان السلجوقي (بركيارق) بقتل الباطنية، فقام أهل أصبهان بقتل من عندهم يقودهم في ذلك الفقيه الشافعي مسعود بن محمد الخجندي حيث جمع الجمّ الغفير بالأسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران

---

(١) الكامل ٩ / ٥٢٤.

وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين فيُلْقَوْن في النار[١] وكان الباطنيون قد ملكوا كثيراً من القلاع بإقليم خوزستان وفارس، وعظم شرهم، وقطعوا الطريق، فعزم أحد قواد السلاجقة (جاولي) على الفتك بهم، فاظهر انه يريد مفارقة بلده، فخرجوا معه ليأخذوا ما معه من أموال وأسلحة وفي الطريق كان قد دبّر لهم مكيدة فوضع السيف فيهم فلم ينج منهم أحد[٢].

وفي سنة ٥٠٠ هـ قتل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلة عظيمة منهم، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها وبعد مخادعة ومخاتلة منهم، وقتل صاحبها ابن غطاش[٣] وكانت دعوة الباطنية قد انتشرت في الشام منذ بداية القرن الخامس بعد مجيء داعيتهم (بهرام) «فاستجاب له كثير من العوام وسفهاء الجهال وسكت عنه العلماء وحملة الشريعة خوفاً من بطش الإسماعيلية»[٤] ففي سنة ٥٢٣ هـ حاول الإسماعيلية تسليم دمشق للصليبيين مقابل أن يسلمهم الصليبيون مدينة صور واكتشف هذه المؤامرة أمير دمشق (بوري بن طغتكين) فقتل متولي الإسماعيلية المزدقاني، ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف وكان ذلك في شهر رمضان[٥].

وفي حوادث سنة ٥١١ هـ قال ابن الأثير: «علم السلطان محمد (السلجوقي) أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم، وكان في أيامه المقدم عليهم والقيّم بأمرهم الحسن بن الصبّاح الرازي صاحب قلعة (ألموت) وكانت أيامه قد طالت، فقد ملك القلعة ما يقارب

---

(١) الكامل ١٠ / ٣١٥.
(٢) الكامل ١٠ / ٣٢٠.
(٣) الكامل ١٠ / ٤٣٠.
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام ٢ / ٣.
(٥) الكامل ١٠ / ٦٥٦.

ستاً وعشرين سنة، وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله رجالهم، فسيّر السلطان له العساكر بقيادة أنوشتكين، فملك عدة قلاع منهم، ثم سار إلى (ألموت) وحاصرهم أشهراً وهم يراوغون لأخذ الأمان وترك القلعة ولكن هذا القائد استمر في حصارهم، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد فتفرقت العساكر عنه ولم تفتح القلعة[١]، وفي عهد السلطان سنجر (٥٢١ هـ) أوقع بالباطنية في (ألموت) وقتل منهم خلقاً كثيراً.

إن محو آثار هؤلاء المجرمين من بشائر العودة، فقد استراح المسلمون من شرهم بل استراح العالم كله، وبقاؤهم يعتبر شوكة في حلوق المسلمين، فهم أبداً مع كل عدو خارجي، وأما في الداخل فهم يزعزعون الأمن والطمأنينة فيعيش الناس في خوف ورعب، فهم أشد خطراً من المنافقين على وحدة الصف الإسلامي، وقد قام السلاجقة وأمراؤهم بخير عمل عندما لاحقوهم في معاقلهم وقصدوا لهم كل مرصد، فجزاهم الله خيراً[٢].

* * *

(١) الكامل ١٠ / ٥٢٧.

(٢) تنمر الباطنيون في عصرنا هذا وأهلكوا الحرث والنسل في بلاد الشام وغيرها، ولكن الوعي الإسلامي، وتقدير الله من وراء ذلك كله أخذ يحطم شيئاً فشيئاً أحلامهم ومؤامراتهم.

(٥)

تراجع بعض الأقاليم عن تأييد الشيعة وفرح الناس بعودة السنَّة

من سنن الله سبحانه وتعالى أن للباطل جولة وللحق جولات، والحق هو الذي يتغلب في النهاية، فبعد اندحار الباطنية وظهور دول سنية قوية، بدأت بعض الأقاليم بالتراجع عن تأييدها للشيعة، وعادت إلى حظيرة الخلافة.

جاء في حوادث ٤٦٨هـ أن الأمير (أقسيس) مَلَكَ دمشق وأخذها من الفاطمية، وخطب للمقتدي بأمر الله العباسي، ومنع الأذان بـ (حي على خير العمل) ففرح أهلها فرحاً عظيماً[١] قال ابن كثير عنه: «من خيار الملوك، عمر بدمشق القلعة التي هي معقل الإسلام بالشام»[٢].

وقد ذكرنا سابقاً ورود رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان ألب أرسلان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان، وإسقاط خطبة العلوي (الفاطمي) صاحب مصر، وترك الأذان بـ (حي على خير العمل)[٣] وفي سنة ٤٣٥ هـ خطب المعز أبو تميم صاحب أفريقية (تونس) للخليفة العباسي وقطع خطبة الفاطميين وأحرق أعلامهم[٤].

---

(١) الكامل ١٠/١٠٠.

(٢) البداية ١٢/١٢٠.

(٣) الكامل ١٠/٦١.

(٤) البداية ١٢/٥٥.

الفصل الرابع

الجهاد يوحد الأمة

١ ـ عودة الثقة.

٢ ـ جهاد نور الدين محمود.

٣ ـ جهاد صلاح الدين.

٤ ـ التجديد عند هذين الملكين.

٥ ـ لماذا لم يتابع التجديد؟

(١)

فتح الرها وعودة الثقة

كان من النتائج الطيبة لاهتمام الوزير (نظام الملك) بالعلم والمدارس، وتحريضه للسلاجقة لتعيين الأمراء ذوي الكفاءة أن ظهر أثر هذا - ولو متأخراً - في بداية القرن الخامس عندما تولى عماد الدين زنكي بن آق سنقر ولاية الموصل بإيعاز من القاضي بهاء الدين الشهرزوري، فأبان (زنكي) عن كفاءة وحزم؛ وبدأ مرحلة الجهاد التي آتت أكلها، وأثمرت نتائجها على يد ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين يوسف فكانا من خيرة السلاطين ديناً وشجاعة وحرصاً على الإسلام.

إن ما قام به الوزير نظام الملك وما قام به العلماء في الدعوة للإصلاح كان كقطرات الماء التي تتسرب في شقوق الأرض ثم تتجمع وتخرج ينبوعاً صافياً، والأمة الإسلامية - حتى في حالات ضعفها - إذا سمعت بالجهاد، ورأت من يقوم به، فإنه يهزها هزاً، ويبعث كوامن شعورها ويستثيرها للطموح والمعالي، فعندما قدم القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام على بغداد مستنفراً للجهاد «سيّر الخليفة خواصه وجماعة أرباب المناصب لاستقباله، فلقوه وأنزلوه المنزل اللائق به وكذلك فعل السلطان السلجوقي، وفُعل معه ما لم يفعل مع الملوك أمثاله، وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر»[١].

---

(١) الكامل ١٠/٤٥٣.

عماد الدين زنكي واسترجاع الرها:

في عهد السلطان محمد السلجوقي تولى عماد الدين زنكي شحنة بغداد (الحامية العسكرية) ولما توفي صاحب الموصل مسعود بن البرسقي قام القاضي بهاء الدين الشهرزوري وصلاح الدين محمد صاحب البرسقي، وعرضا على السلطان أن يولي الموصل عماد الدين فوافق لما يعلم من كفاءته وشهامته.

استطاع زنكي بفترة قصيرة توحيد أكثر أقاليم الجزيرة، ثم بدأ ببلاد الشام وأخذ بعض الحصون فلما رأى الروم والفرنجة ما فعله عماد الدين قرروا حصار حلب، ولم ير زنكي منازلتهم بكثرتهم، بل نزل قريباً منهم لمناوشتهم، وأرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى السلطان مسعود في بغداد يخبره بالواقع ويطلب النجدة، فقال القاضي محذراً عماد الدين من الاستعانة بعساكر السلطان: «**إذا جاء عساكر السلطان اتخذوا هذا حجة وملكوا البلاد**» فقال زنكي: «**إن هذا العدو قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أوْلى بها من الكفار**»[1].

وكلام زنكي يختلف عما كان عليه كثير من أمراء المدن قبله الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على ولايتهم ولو استعانوا بالكفار، بينما نجد أن زنكي لا يمانع من أخذ السلطان لحلب وتكون للمسلمين، وفي سنة (٥٢٢ هـ) استطاع زنكي تسلم مدينة حلب، وهكذا صار الفرنجة بإزاء رجل قوي يستطيع حشد الجيوش والأموال، فلما استقر له الحال ورأى أنه قد مهد الأمور، عند ذلك قرر مجابهة الفرنجة وبدأ بحصن (الأثارب) الذي يقع بين حلب وأنطاكية، وذلك لشدة ضرره على المسلمين، وحاصر الحصن وخرج له الصليبيون بخيلهم ورجلهم،

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٣٥.

وكان النصر للمسلمين، وهي أول وقعة معهم، وخاف أهل قلعة حارم فصالحوه، ومن هنا استدار الزمان، وقوي المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد جاءها ما لم يكن بالحسبان «وصار قصاراهم حفظ ما في أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع»(١).

وفي سنة ٥٣٢ هـ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة، واستولوا على البلاد المحيطة بحلب، ثم حاصروا مدينة شيزر، فأرسل صاحبها سلطان بن منقذ الكناني يستنجد زنكي، فجاء ونزل على حماه، وكل يوم يرسل السرايا يتخطف من الروم ويخرج لهم ويقول: اخرجوا إلى الصحراء نكتفي؛ وهو يفعل ذلك ترهيباً لهم، ولكن ملك الروم آثر السلامة وانسحب إلى بلاده.

وفي سنة ٥٣٤ هـ أغار زنكي على ممالك الإفرنج فاجتمعوا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن (بارين) وصبر المسلمون صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير (القادسية) ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الإفرنج، ثم تسلم حصن (بارين) بالأمان، واستراح المسلمون ما بين حلب وحماه من شرهم(٢).

وكان في نية زنكي توحيد بلاد الجزيرة تحت قيادته حتى يتمكن من مجابهة الأعداء، فسار إلى بلاد الهكارية، وكانت بيد الأكراد فأخذها ثم بلاد آق، وكل هذا كان تمهيداً للقيام بأعظم أعماله وهو فتح (الرها)، ففي سنة ٥٣٩ هـ قرر زنكي محاصرة هذه المدينة وكانت تحت حكم الصليبيين ويتملكها (جوسلين) وحاصرها

---

(١) الكامل ١٠/٦٦٣ وكلام ابن الأثير هنا يشبه إلى حد ما حالنا الآن، فبعد أن كانت إسرائيل تحلم بالتوسع في الأراضي التي تجاورها، جاءها ما لم يكن بالحسبان، لقد جرب الشعب المسلم في فلسطين القوة وترك احتجاجات الدول العربية في الأمم المتحدة ثم جاءت هجرة اليهود من روسيا فرجعت أحلام إسرائيل التوسعية، ولم تحرك الدول المجاورة ساكناً، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(٢) الروضتين ١/٣٤.

ثمانية وعشرين يوماً ثم دخلها عنوة، فاستباحها ونكس صلبانها وأباد قسوسها ورهبانها، وعادت إلى حكم الإسلام، وهي من أشرف المدن عند النصارى، وسقطت بعدها الحصون القريبة، وأخلى الديار الجزيرية من حكم الفرنج وشرهم[1].

لم يستطع زنكي إتمام هذه المرحلة فقد قتل وهو يحاصر قلعة (جعبر) التي تقع على نهر الفرات في إقليم الجزيرة. قال ابن كثير يصفه: «من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، كان شجاعاً مقداماً حازماً» وهو الذي بدأ بجهاد الصليبيين، وعادت الثقة إلى نفوس المسلمين ولكن التجديد الجهادي كان على يد ابنه نور الدين محمود.

* * *

(١) الروضتين ١ / ٣٦.

(٢)

نور الدين محمود

إذا أردنا معرفة فضل هذا السلطان وأثره وجهاده، وأنه يمثل هو وصلاح الدين التجديد الجهادي في عصرهما، فلا بد أن نذكر ما قاله المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي الملقب بأبي شامة عندما ذكر سبب اهتمامه بتاريخ هاتين الدولتين (النورية والصلاحية) يقول عن نور الدين: «أطربني ما رأيت من آثاره وسمعت من أخباره مع تأخر زمانه ثم وقفت بعد ذلك على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين، فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة، والفضل للمتقدم (نور الدين) فإنه أصل ذلك الخير كله، مهَّد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، ولكن صلاح الدين أكثر جهاداً وأعم بلاداً، صبر وصابر وذخر الله له من الفتوح أنْفَسه، وهو الذي فتح الأرض المقدسة»[١].

ولد نور الدين سنة (٥١١ هـ) ونشأ مع والده في العراق ثم الموصل وبلاد الشام، وبعد وفاة والده قام مقامه وأظهر السنة في حلب وغيّر البدعة وقمع الرافضة، وبنى المدارس ووقف الأوقاف وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعاً الآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش[٢]. قال عنه ابن الأثير: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٤ .

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٥ .

الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه[1].

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة، وزيادة النفقة فاحمرَّ وجهه، وقال: من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً، وقد وهبتها إياها فلتأخذها[2].

روى أحد الملازمين له من أمرائه فقال: «كنت معه يوماً في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها» قال أبو شامة: «رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا!!»[3].

وقال ابن الأثير: وكان يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب.

جمعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربه ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ[4]

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتِّباع سنة العدل والإنصاف وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، فإنهم كانوا قبل ذلك

---

(١) الكامل ١١/٤٠٣.
(٢) المصدر السابق /٤٠٣.
(٣) الروضتين ١/٦.
(٤) الكامل ١١/٤٠٣.

كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، فلم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً، بل أطلقها – رحمه الله – جميعها في بلاد الشام والجزيرة ومصر[١].

ومن عدله أنه بنى داراً للعدل وكان سبب بنائها أن أمراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى هذه الدار، وأحسّ أسد الدين بهذا فقال لنوابه: والله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلّبنه، فامضوا إلى كل مَنْ بينَكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه[٢]، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أبيّ ظالم، وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد لله شكراً[٣].

وأما فعله في بلاد الإسلام من المصالح فكثير، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها، وبنى المدارس بحلب وحماه ودمشق، وكان أهل الدين عنده في أعلى محل، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين فقال له السلطان: يا هذا الذي تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته، على أنني والله لا

---

(١) الروضتين ١ / ٦.

(٢) أي أنهوا المشكلة بأي طريقة، ولو أن ترهنوا له كل ما يطلب.

(٣) الروضتين ١ / ٨.

أصدقك فيما تقول، وإن عدت وذكرته بسوء لأؤدبنك»[١].

ومن عفته وتقواه أن ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة وأمر الخطباء بإسقاط ألقابه في الدعاء له على المنابر، وكان كما وصفه العماد الأصفهاني: «هو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام وقد غلب الكفر، وبلغ الضر، فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها..»[٢] وعندما تملك الموصل أمر قائد شرطتها أن لا يعمل شيئاً إلا بالشرع الذي يأمر القاضي به، وكانوا قبله يعملون بالسياسة[٣] وطُلب منه أن يزيد في العقوبات فرفض وقال: هذا زيادة في الشريعة.

العلماء في عهد نور الدين:

إن للعلماء الدور الأكبر في الإصلاح الذي يبتغيه نور الدين فقد أفسح لهم المجال وقدرهم أكبر التقدير؛ ولذلك وفد عليه العلماء، أو طلبهم ليساعدوه في مهمته الصعبة.

ومن العلماء الذين تربوا في المدرسة الشافعية القاضي كمال الدين الشهرزوري محمد بن أبي محمد، وكان رسول عماد الدين زنكي إلى بغداد، ثم انتقل إلى دولة نور الدين بالشام وتولى تعيين القضاة، وترقى إلى درجة الوزارة وحكم في بلاد الشام، وكان فقيهاً أديباً شاعراً شهماً جسوراً، عظيم الرياسة خبيراً في تدبير الملك[٤].

---

(١) الروضتين ١ / ٩.
(٢) الروضتين ١ / ١١.
(٣) المصدر السابق ١ / ١٣.
(٤) وفيات الأعيان ٤ / ٢٤١.

ومنهم علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الحنبلي، قدم بغداد وتفقه بها، وسمع الحديث، ثم رجع إلى بلده دمشق، وكان رسول نور الدين إلى بغداد عام ٥٦٤ هـ ثم كانت له حظوة عند صلاح الدين[١].

ومنهم القاضي عبد الله بن محمد بن أبي عصرون أحد أئمة الشافعية، باشر في أيام نور الدين التدريس في الغزالية، ثم انتقل إلى حلب فبنى له نور الدين مدرسة، وبحمص أخرى، توفي ٥٨٥ هـ[٢].

والقاضي محيي الدين محمد بن كمال الدين الشهرزوري قاضي حلب تفقه بالمدرسة النظامية في بغداد[٣].

جهاد نور الدين محمود:

لم يكن الجهاد عند نور الدين حلاً مؤقتاً أو مصلحة تقتضيها الظروف، بل كان الأصل هو الاستعداد للجهاد وغزو الكفار، فقد عاتب نور الدين السلطان قلج أرسلان السلجوقي الذي كان يحكم ملطية وسيواس واقصرا من بلاد الأناضول المجاورة للروم عاتبه لأنه يحاول التسلط على بلاد الإسلام ولا يقاتل الروم وقال له: «أنت مجاور للروم ولا تغزوهم، وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معي»[٤].

وفي إحدى عزماته لقتال الصليبيين، أرسل إلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل وإلى صاحب حصن (كيفا) وصاحب ماردين، فاستجابوا له أما صاحب

---

(١) البداية ١٣ / ٣٩.
(٢) البداية ١٢ / ٣٥٥.
(٣) الروضتين ١ / ١٨٥.
(٤) الكامل ١١ / ٣٩٢.

حصن كيفا فقد قال له أصحابه: على أي شيء عزمت؟ قال: على القعود فإن نور الدين يلقي نفسه والناس في المهالك[1]، فوافقوه على رأيه فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا؟ فارقناك أمس على حالة، فنرى اليوم ضدها. قال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، فإنه قد كاتب زهادها وعبادها يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ويستمد منهم الدعاء ويطلب إليهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقعد هؤلاء يبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بد من المسير إليه»[2].

وفي وقعة بانياس وفتح قلعتها كان معه أخوه نصر الدين فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى، وكان معه في هذا الفتح ولد (معين الدين أنر) الذي سلّم قلعة بانياس للفرنجة، فقال له نور الدين: للمسلمين فرحة واحدة بهذا الفتح ولك فرحتان، فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن اليوم برّد الله جلد والدك من النار[3].

فتوحات نور الدين:

من أوائل وقعاته مع الفرنجة أنه أثناء زيارة والي دمشق معين الدين أنر في بعلبك جاءهم كتاب من صاحب طرابلس الصليبي يحثهم فيها على أخذ حصن العريمة، فاستغل نور الدين هذا الطلب، وحاصر هو ومعين الدين الحصن وأخذاه، وفي سنة ٥٤٣ هـ سار نور الدين إلى بصرى الشام وقد اجتمع فيها الفرنجة عازمين

---

(١) هذا منطق المنهزمين الذين لا يرغبون في الجهاد ويسوغون لأنفسهم القعود، وهذا كله بسبب حب الدنيا والتهالك عليها، والدول العربية تسوِّغ عدم نصرة فلسطين بأنهم لا يستطيعون محاربة أمريكا، ولا يريدون أن تجرهم إسرائيل إلى معركة لم يعدوا لها.

(٢) الكامل ١١ / ٣٠٢.

(٣) الكامل ١١ / ٣٠٤.

على قصد الجزء الداخلي من بلاد الشام، فالتقى بهم هناك واقتتلوا أشد القتال، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنجة[1]. وفي سنة ٥٤٤ هـ هاجم حصن حارم وخرّب ما حوله ونهب، ثم رحل عنه إلى حصن آنب ودارت معركة مع الفرنجة، انتصر فيها المسلمون وقتل فيها أمير أنطاكية، ثم سار نور الدين إلى حصن (فاميا) وحاصره وضيق عليه ثم تملكه صلحاً[2] وفي سنة ٥٤٦ هـ استطاع نور الدين بعد أسر (جوسلين) أحد شياطين الفرنجة، استطاع أخذ قلاع تل باشر وعين تاب وإعزاز ومرعش وغيرها من أعمال حلب، وفي سنة ٥٤٩ هـ دخلت دمشق ضمن دولته، وكان نور الدين يخطط من زمن لأخذها؛ لأنها في طريقه إلى الصليبيين، وهي ضعيفة وحدها وإذا حاول أخذها بالقوة فإن ملكها يستجير بالصليبيين، عدا عن كره نور الدين لسفك الدماء، ولذلك تحايل على مجير الدين حتى فاجأة بهجوم سريع بعد أن كاتب أهل دمشق ليسلموها له فدخلها دون قتال يذكر، وأعطى مجير الدين مدينة حمص، وفي سنة ٥٥٩ هـ كان فتح حارم وهي من أعظم معارك نور الدين مع الصليبيين؛ إذ جاء الفرنج بحدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وكان المقدم عليهم البرنس (بيموند) صاحب أنطاكية و (قمص) صاحب طرابلس وابن جوسلين، واستطاع نور الدين جرهم إلى معركة خارج حصن حارم وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ووقع كل الأمراء والملوك أسرى بين يديه.

وفي سنة ٥٦٠ هـ فتح حصن المنيطرة وغنم فيه مغانم كثيرة وفي سنة ٥٦٢ هـ تملك نور الدين صافيتا والعريمة.

---

(١) الروضتين ١ / ٥٥.

(٢) الروضتين ١ / ٥٨.

لم يغب عن بال السلطان محمود أن توحيد بلاد الشام ومصر من أقوى الأسباب للوقوف في وجه الصليبيين وجاءت الفرصة المناسبة عندما استجار به وزير العبيديين في مصر شاور السعدي؛ وذلك لمساعدته في إرجاع منصب الوزارة الذي فقده. بادر نور الدين للإجابة وأرسل جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه على أن يكون لنور الدين ثلث دخل مصر، دخل جيش نور الدين القاهرة، وأعاد شاور للوزارة، ولكن شاور غدر ما عاهد عليه، وطلب من أسد الدين مغادرة مصر، واستنجد بالصليبيين الذين وجدوها فرصة فاضطر أسد الدين للانسحاب دون خسائر، وفي نيته العودة لمصر لتأديب شاور، وفي عام (٥٦٢ هـ) كان أسد الدين قد أكمل الاستعدادات وجدّ في السير فوصل مصر وعسكر غربي القاهرة، فالتقى مع المصريين يساعدهم الفرنجة وهزمهم شر هزيمة، وليس معه إلا ألفان من الفرسان، ثم إن المصريين بذلوا له الأموال للصلح فوافق ورجع للشام، وكان الفرنجة في هذه المرة قد تمكنوا من شاور وحكومته وشرطوا شروطاً منها أن يكون لهم حامية في القاهرة، فتحكموا في المسلمين واستدعوا الصليبيين من فلسطين لأخذ مصر، فاشتد خوف نور الدين أن يأخذ الكفار مصر، فتجهز أسد الدين للمرة الثالثة وأخذ معه ابن أخيه صلاح الدين وهو كاره لذلك ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ وكان شاور قد أرضى الصليبيين بالمال ليعودوا عن مصر فاستجابوا له، ولكن أسد الدين كان قد عزم هذه المرة أن يستقر بمصر، وبدأ شاور يماطل ويعمل الحيل لإبعاد جيش نور الدين وقرر القبض على أسد الدين وأمرائه، فأشار عليه ابنه (الكامل) بألاّ يفعل، فقال له شاور: لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً، قال الابن: لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، ولكن شاور أصر على غدره، وشعر به قواد أسد الدين فاتفقوا على قتله واستراحوا منه واستراحت مصر منه أيضاً، وأصبح أسد الدين وزيراً للدولة المصرية العبيدية، وكان آخر ملوكها

العاضد ليس له من الأمر شيء. فكانت وزارة شيركوه أول خطوة على طريق إعادة مصر إلى السنة، وبعد شهرين من وزارته توفي رحمه الله وتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين، وهو الذي أزال الدولة العبيدية بعد إلحاح من نور الدين بأن يقطع الخطبة للعاضد ويخطب للخليفة العباسي وصلاح الدين يعتذر خوفاً من أهل مصر، ولكن عندما استجاب لم يخالفه أحد ولم ينتطح فيها عنزان؛ وهكذا كان إرجاع مصر للسنة وتوحيدها مع بلاد الشام من خطوات الجهاد المباركة التي بدأها نور الدين عليه رحمة الله، وأكمل هذه الخطوات السلطان المجاهد صلاح الدين.

إن فكرة الوحدة بين الأقطار ـ الإسلامية ـ ولو كانت مبدئياً بين الأقطار المتجاورة ـ من أعظم الخطوات في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، خاصة إذا قامت هذه الوحدة على أسس سليمة، والبديل عن الوحدة هو التمزق وإثارة الإقليميات الضيقة، وإذا كانت الوحدة بين المسلمين مطلباً شرعياً، فإنهم بحاجة إليها هذه الأيام أكثر مما سبق، فالعالم كله يتكتل كي ينافس ويقوى على التحديات، فكيف إذا كان العالم الإسلامي غارقاً في المشاكل الاقتصادية والاجتماعية. وفي واقعنا الآن لا تتأتى هذه الوحدة إلا إذا سبقتها وحدة الدعاة المخلصين؛ لأنهم هم الأجدر بإقامة الوحدة بعدئذ، وأما غيرهم ففي دعوته للوحدة شوائب وأكدار..

* * *

(٣)

صلاح الدين يوسف بن أيوب

في أجواء الجهاد الذي أقامه نور الدين محمود، وفي أجواء الجد والإصلاح وإعادة دور العلماء في التوجيه والمشاركة – في هذه الأجواء وجد صلاح الدين نفسه في موقع المسؤولية بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وزيراً لآخر ملوك الدولة العبيدية في القاهرة (العاضد) الذي رغب في أن يكون صلاح الدين وزيراً له؛ لأنه ظن فيه الضعف، ويستطيع الاستفادة من الجيش الذي معه لحماية مصر، ولكن الأمور جاءت على غير ما يحتسب، **فقد شمر صلاح الدين عن ساعد الجد «وترك اللهو وتقمّص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع»**[1] وكشفت هذه المسؤولية التي ألزمها عن شخصية فريدة ومعدن أصيل فحمل هموم المسلمين والإسلام، ولم يهدأ له بال، ولم يذق طعم الراحة حتى لقي ربه.

ونحن هنا لا نؤرخ للدولة الأيوبية، وإنما نذكر أثر هذا الجو الجهادي في شخصية صلاح الدين، وكيف هيأ له رجالاً من العلماء والقادة العسكريين مما أعانه على مهمته الكبيرة.

---

(١) الروضتين ١ / ١٧٣ .

بعض أعمال صلاح الدين :

١ ـ إرجاع مصر إلى السنة :

عزل صلاح الدين قضاة مصر؛ لأنهم كانوا شيعة، وولى رئيساً للقضاة : عبد الملك بن درباس الشافعي، كما قطع الأذان بـ (حي على غير العمل) وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر (سنة ٢٠٨ هـ) وقد بشر نورُ الدين محمود الخليفةَ العباسي بذلك، وفرح الناس ونظم العماد الأصفهاني في هذه المناسبة :

توفي العاضـــدُ الدعيّ فمـــا	يفتـحُ ذو بدعة بمصـــر فمـا
وعصرُ فرعونِها انقضى وغـدا	يوسفُها في الأمور محتكمـا
وصار شـمل الصلاح ملتئماً	بها وعقد الســـداد منتظمـــا

٢ ـ توحيد بلاد الشام ومصر :

بعد وفاة نور الدين رحمه الله واضطراب بلاد الشام جاء صلاح الدين فاستلم دمشق ثم حمص وحماة وحاصر مدينة (حلب) ولكن المتنفذين فيها الأوصياء على ابن نور الدين (إسماعيل) لصغر سنه طلبوا المساعدة من الشعب، ويبدو أن قسماً كبيراً من هذا الشعب كان يَحنُّ إلى التشيع الذي أبطله نور الدين، فاشترطوا للمساعدة العمل بأقوالهم وأفعالهم فاستجاب زعماء المدينة لهذا الشرط ولم يكتفوا بهذا، فعندما رأوا قوة صلاح الدين واستمراره في الحصار طلبوا المساعدة من الحشاشين الإسماعيلية الذين اتخذوا من مدينة (بانياس) مقراً لهم . فحاول هؤلاء ـ على طريقتهم ـ اغتيال صلاح الدين ولكن الله نجاه منهم، ونرك حصار حلب فترة ثم رجع لها مرة أخرى، وحاول الحشاشون اغتياله للمرة الثانية فأخفقوا وقتل من جاء منهم لهذه العملية والذين يسمونهم (الفداوية) ولم يكتفِ أهل حلب بذلك بل استعانوا بصاحب طرابلس الصليبي، فلم يهتم به صلاح الدين وأرسل كتيبة

تناوشه عند حمص[١].

ومع ذلك فقد تراجع صلاح الدين عن حلب مُؤْثِراً عدم الدخول في حرب طاحنة مع أهلها، خاصة وأنهم طلبوا الصلح، وشفعوا في ذلك بابنة نور الدين محمود، ولكن نية السلطان لا تزال في توحيد بلاد الشام ومصر حتى تقوى على الوقوف في وجه العدو، وأثناء هذا أراد قطع دابر الفساد وضرب (الحشاشين) فهاجمهم في عقر دارهم، وقتل منهم وسبى ولكن خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة شفع بهم فقبل السلطان شفاعته[٢] ولم يتمكن صلاح الدين من ضم حلب إلا بعد وفاة ابن نور الدين واختلاف أقاربه بعده فسلموها للسلطان وبذلك يكون قد اطمأن إلى القاعدة الأساسية الراسخة للصدام مع الصليبيين، كما قال القاضي ابن شداد: «لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الإسلام»[٣]. ومع ذلك فلم يترك صلاح الدين الجهاد في هذه الفترة بل اصطدم مع الصليبيين في عدة معارك مثل (مرج عيون) وغيرها، ولكنه لم يكن مطمئناً إلى الصدام الكامل مع الفرنجة.

---

(١) هذه من المصائب التي ابتلي بها المسلمون، وهي استعانة هؤلاء المتنفذين بأعداء الله كي تبقى لهم السلطة والسيطرة على مدينة واحدة. وهذا هو حال المجتمع عندما تسيطر عليه الأنانية والأهواء وخسة الطباع، وهو راجع إلى تدهور الحالة الأخلاقية وضعف الوازع الديني، وليس في الأذهان أي مشروع حضاري.

(٢) تتكرر هذه الشفاعات في عدم استئصال الباطنيين في بلاد الشام في عهد الدولة العثمانية ومن بعدها، وهذه غفلة من أهل السنة ناتجة عن طيب قلوبهم.

(٣) الروضتين ١/٢٣٦.

جهاده :

استقر الأمر لصلاح الدين في مصر والشام وكثير من مدن إقليم الجزيرة، وقد مرض في إحدى حملاته على إقليم الجزيرة فنذر لئن شفاه الله ليصرفن كل همه لقتال الفرنجة وفتح بيت المقدس، وليقتلن (صاحب الكرك) الصليبي بيده، وكان هذا النذر بإشارة من وزيره القاضي الفاضل[1].

بعد هذا بدأ بحملات مركزة على المدن القريبة قبل أن يظفره الله بالفتح الأعظم وهو استرجاع بيت المقدس فقد انتصر على الفرنجة في موقعة (مرج عيون) سنة ٥٧٥هـ وموقعة (بانياس) وأسر رؤساءهم ودمر حصن الأحزان في صفد، وما زال يناوش الفرنجة حصناً بعد حصن حتى تجمع عنده جيش كبير في سهل حطين حيث كانت الموقعة الكبرى التي كسرت عظام الصليبيين ومهدت لفتح القدس، وقد أسر وقتل معظم من حضرها من الفرنجة « فمن شاهد القتلى قال : ما هناك من أسير، ومن عاين الأسرى قال : ما هنالك من قتيل، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل »[2].

وكان من الأسرى صاحب الكرك (أرناط) الذي كان يؤذي الحجاج وفي نيته احتلال المدينة النبوية فقتله صلاح الدين بيده ووفّى بنذره، وقتل كل (الفداوية) و(الأسبارتية) لأنهم من شياطين الصليبيين وأشدهم عداوة، وبعد حطين استطاع السلطان فتح المدن والحصون التالية : عكا، نابلس، حيفا، قيسارية، صفورية،

---

(١) عبد الرحيم البيساني، الكاتب المشهور، كان دينا محباً للخير، كثير الصدقات وخاصة في فكاك أسرى المسلمين توفي ٥٩٦ هـ وهذا يذكرنا بالأثر الطيب لوزير السلاجقة نظام الملك، وكيف كان يشير عليهم بالولاةِ الصالحين. والبطانةُ الصالحةُ لا تأتي غالباً إلا للرجل الصالح.

(٢) الروضتين ٢ / ٧٨.

الناصرة ـ وفي السابع والعشرين من رجب من هذه السنة ٥٨٣ هـ، وفي يوم الجمعة فتح بيت المقدس، وعاد الأذان إلى منابرها، وعاد المسجد الأقصى بعد غياب إحدى وتسعين سنة، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً، وذهبت البشائر إلى كل مكان، وجلس السلطان متواضعاً وقوراً بين الفقهاء وأهل العلم، وكان نور الدين رحمه الله يتشوق لفتحها وقد هيأ منبراً عظيماً لهذه الغاية، فجيء بالمنبر وخطب في الجمعة التالية القاضي ابن الزكي، وقد رتب صلاح الدين أمور المدينة وأنشأ المدارس ووسع المسجد وطهره من الأقذار والأنجاس وكان الجهاد قد غلب على السلطان فلم يستقر في القدس إلا قليلاً، ثم بدأ جولة أخرى من الفتوحات، فأتم فتح صيدا وبيروت، جبلة، اللاذقية، حصن صهيون، حصن بغراس، ورجع بعدها إلى صفد والكرك ففتحها، ثم قلعة الشقيف.

وفي ردة فعل صليبية شديدة حاولوا استرجاع عكا، فحاصروها من جهة البحر فأسرع السلطان إليها ووقف بإزائهم، فكانت الإمدادات تأتي الصليبيين من جهة البحر بشكل دائم فاضطر السلطان والمسلمون لمصابرتهم ستة وثلاثين شهراً (رجب ٥٨٥ ـ شعبان ٥٨٨ هـ) وفي هذا الحصار ظهرت شخصية صلاح الدين العظيمة، ثلاث سنوات وهو في حال قتال وتأهب واستعداد، قال ابن شداد: «وكان رحمه الله من عظماء الشجعان، قوي النفس شديد البأس، لا يهوله أمر، ولقد وصل في ليلة واحدة من الإفرنج نيف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس»[١] وخلال هذا الحصار الطويل جرت وقعات كبيرة بينه وبين الفرنجة، وانتصر فيها، ولكن الإمدادات كانت تتوالى من أوروبا عن طريق البحر، وصابر الفريقان مصابرة عجيبة، وكان القتال يتم يومياً أحياناً وفي البر والبحر، وفي هذا الحصار استنجد صلاح الدين بملك المغرب

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٢٠.

أمير دولة الموحدين فرفض المساعدة لأنه لم يذكر في رسالته (أمير المؤمنين) !! وفي نهاية هذه المعاناة مرض السلطان واضطر للصلح مع الإفرنج وأخذوا عكا مرة ثانية، وحاولوا أخذ يافا ولكنهم لم يفلحوا، وعاد السلطان إلى القدس يرتب أمورها ويصلح من سورها «وكان رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر»[1].

عاد بعد هذا الغياب الطويل عن العاصمة (دمشق) وفي نيته التهيؤ للحج، ولم يتيسر له، وفي نيته استمرار الجهاد وملاحقة الصليبيين في ديارهم، ولكن عاجلته المنية عن تحقيق هذه الرغبة، وتوفي رحمه الله في دمشق في السابع والعشرين من صفر سنة (٥٨٩) هـ.

شغفه بالجهاد:

قال القاضي ابن شداد: «وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد وفي الأرفاد لصدق وبرّ في يمينه ولقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبته (الجهاد) أهله وولده ووطنه وسكنه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وقد أُلِّفَ له كتبٌ عدة في الجهاد وأنا ممن جمع له كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه، وكل حديث، ولقد سرنا مع السلطان على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيماً، والبحر هائجاً وموجه كالجبال، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندي، واستخففت رأي من يركب البحر، فبينا أنا في ذلك إذ التفت

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٢ / ٧٤.

إليّ وقال في نفسه أنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل: قسمتُ البلاد وأوصيتُ وودَّعتُ وركبتُ هذا البحر إلى جزائرهم أتبعُهم فيها حتى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي وحكيت له ما خطر لي، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم ويقول: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل»[1].

ويكتب للخليفة العباسي: «وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة للخليفة هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها واللهُ العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا لغضب يملأ العيان»[2] وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس: «ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره لعلمت أن له قلباً قد حمل جبلاً في فكره»[3] وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنى له داراً فغضب عليه وقال: إنا لم نخلق للمقام في دمشق ولا بغيرها وإنما خلقنا للجهاد.

---

(١) الروضتين ٢/ ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) الروضتين ٢/ ٤٨.

(٣) الروضتين ٢/ ١٩٦.

شيء من ترجمة حياته وأخلاقه:

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ بقلعة تكريت في العراق، وكان والده أيوب بن شادي والياً عليها، ثم انتقل الوالد إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، ثم إلى الشام متولياً لقلعة بعلبك، وانتقل الابن معه وبدأ نور الدين يقدم الابن ويوكل إليه بعض الوظائف المهمة إلى أن انتدب لمرافقة عمه أسد الدين في الحملة التي وجهت إلى مصر، وبعد وفاة عمه تسلم منصبه وهو الوزارة في نهاية الدولة العبيدية، ثم صار إلى ما صار إليه من توحيد بلاد الشام ومصر والجزيرة تحت قيادته ومجاهدته للصليبيين وفتح بيت المقدس، توفي في دمشق سنة ٥٨٩هـ، يقول قاضيه ابن شداد تعليقاً على وفاته: «وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوُّز والترخُّص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِلَ الفداءُ لفداه بالنفس»[١].

قال ابن شداد: ولم يخلّف السلطان أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم حتى إلى أعدائه، ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً. وديناراً واحداً، وكان متقللاً في ملبسه ومأكله ومركبه، ولا يلبس إلا ما يحل له وتطيب به نفسه، مواظباً على الصلاة في أوقاتها مع الجماعة، ومواظباً على سماع الحديث، وقد سمع الحديث وهو بين الصفين، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء واللغو يغلظ على الفاجرين ويلين للمؤمنين[٢]. وقد أمر ولده الظاهر وهو بحلب أن يقتل الشهاب السهروردي لما علم عنه من الشعبذة والانحراف عن الدين.

---

(١) الروضتين ٢ / ٢١٣.

(٢) الروضتين ٢ / ٢١٧.

وكان متواضعاً جداً، يخرج للقاء من يقدم عليه، ويكارم الناس مكارمة عظيمة، وربما طلب الماء من خدمه فلا يستجاب له، ولا يقول لهم شيئاً. قال القاضي الفاضل: «وكانت طرحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص (ما يطلبه الناس) وهو لا يتأثر بذلك، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير، كثير الوحل فنضحت البغلة عليه في الطين، حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يبتسم[1].

منزلة العلم والعلماء عنده:

إن الأجواء العلمية التي رسخت في عهد نور الدين رحمه الله استمرت في عهد صلاح الدين، فالسلطان يذهب إلى العلماء ويحضر دروسهم، ففي سنة ٥٧٢ هـ ذهب إلى الإسكندرية وتردد على الشيخ أبي طاهر السِّلَفي[2]، وداوم الحضور عنده لسماع الحديث، وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين، ولما تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه من تعيين القضاه رغم أن كمال الدين ظن أن السلطان سيعزله لما كان بينهما من مخاصمة في عهد نور الدين، وفي سنة ٥٧٧ هـ عين السلطان ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية، وجمع به أهل العلم والعلماء.

ومن العلماء المقربين من صلاح الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي، وهو الذي كشف مؤامرة العبيديين للانقلاب على صلاح الدين[3].

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٢٣.

(٢) أحمد بن محمد بن سِلَفة الأصبهاني، ورد بغداد واشتغل على الكيا الهراسي في الفقه، دخل الإسكندرية وأقام بها وكان محدثاً مشهوراً توفي ٥٧٦هـ، انظر ابن خلكان / وفيات الأعيان ١ / ١٠٥.

(٣) البداية ١٣ / ٣٩.

ومنهم نجم الدين الخبوشاني، الفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية وقطع الخطبة لهم، بنى له صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه.

ومن الفقهاء الأمراء الفقيهُ عيسى الهكاري «وكان جندياً شجاعاً كريماً، تفقه على الشيخ أبي القاسم البرزي واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، وكان يخاطب صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره، توفي وصلاح الدين محاصر لعكا»[1] وكان إذا زاره عالم اهتم به جداً، ولا يتركه حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لا تكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء، قال القاضي ابن شداد: وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً[2].

وكان آل المقدسي الذين سكنوا حيّ الصالحية في دمشق: أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني والشيخ العماد، كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها صلاح الدين، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها[3].

وزراؤه وأمراؤه:

إن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة جدلية كما يقال، فعندما يكون الحاكم صالحاً يحب أهل الدين والخير، يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى بطانة صالحة

---

(١) الكامل ١٢/ ٤٣، وفيات الأعيان ٣/ ٤٩٧.

(٢) الروضتين ٢/ ٢١٩.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٦٥.

من وزراء وأمراء، وهذا ما ينطبق تماماً على صلاح الدين، فقد وفق إلى وزير صدق وهو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان ذا رأي سديد وعقل رشيد، معظماً عند صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في المهمات الكبيرة خاصة، بل يقول العماد الأصفهاني الكاتب عنه: «سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، وما افتتح السلطان الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، وكانت كتابته كتائب النصر، وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة»[١]. وهو الذي كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب، ويحذره من أن يظلم من الجنود أحداً فيكون سبباً للهزيمة يقول: «إن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية، وقد أجرى الله على يد مولانا من فتح المقدس ما يكون له بمشيئة الله حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه»[٢]. كما وُفِّقَ صلاح الدين إلى قادة جيوش مخلصين في الجهاد، وربما كان للبيئة الجهادية أثر عليهم، فمن أمرائه عز الدين جورديك وهو من مماليك نور الدين، جمع الديانة والشجاعة[٣]، وسيف الدين جاولي، وكان شهماً شجاعاً يرجع إلى دين وعبادة[٤]، وأبو الهيجاء بن السمين وابن المشطوب، وبهاء الدين قراقوش الذي كان من كتابه وأمرائه، شهماً شجاعاً عمّر سور القاهرة، وبنى قلعة الجبل، وكان صلاح الدين قد سلمه عكا فوقع الحصار وهو فيها، وصنع الناس عليه قصصاً غير صحيحة[٥].

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٤١.
(٢) البداية ١٢ / ٣٣٩.
(٣) الكامل ١١ / ٥٥٧.
(٤) الكامل ١١ / ٥٥٨.
(٥) البداية ١٣ / ٣٤.

هل تنازل صلاح الدين عن فلسطين؟ :

رغم تكالب الصليبيين بعد فتح بيت المقدس وأخذهم لعكا، واضطرار صلاح الدين للصلح لمدة ثلاث سنوات، لكنه لم يتنازل عن الأرض؛ لأنها ليست ملكه بل هي للمسلمين، ولقد حاول معه ملك الإنكليز ولكنه أبى أشد الإباء أن يتنازل عن شيء من فلسطين لأعداء الله، والرجال العظام أمثال صلاح الدين ليس من شيمهم التساهل بحقوق المسلمين، كتب له ملك الإنكليز: «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه لو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن..» وطبعاً هذه مناورة من ملك الإنكليز، يطلب الكثير ليحصل على ما يستطيع عليه أو على القليل(١).

وقد أجابه صلاح الدين: «القدس لنا وهو مسرى نبينا فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت..»(٢) فأرسل ملك الإنكليز: «الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفراً، وأن من سكن من النصارى في البلد لا يُتعرض لهم».

فأجابه السلطان: «**إن القدس ليس لكم منه حديث سوى الزياره**»(٣)، الا ما أشبه الليلة بالبارحة، لقد تكالب اليهود في هذا العصر على فلسطين، يؤزهم الغرب

---

(١) وقد كان مضطراً للصلح، ويريد الرجوع إلى بلاده ويقول في رسالة للسلطان: «بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر..».

يقول ابن شداد: «فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى، وكان – لعنه الله – مضطراً إلى الرواح، وهذا عمله مع اضطراره، والله المسؤول أن يكفي المسلمين مكره..» قلت: وهذا دأب الإنكليز إلى الآن.

(٢) الروضتين ٢ / ٢٠٠.

(٣) الروضتين ٢ / ٢٠٠.

الصليبي، ولا يزالون يراوحون ويراوغون ليستفيدوا من الوقت، ويحصلوا على مكاسب جديدة؛ وأصحاب السلام الهزيل ينتظرون الوعود الشيطانية؛ لأن إرادة القتال والجهاد غير واردة عندهم، فهم حريصون على السلام بأي ثمن، ولكن اليهود يريدون الأرض خاصة وقد جاءهم المدد من يهود روسيا[١].

السلطان ومدينة صور:

يتهم المؤرخ ابن الأثير السلطان صلاح الدين بأنه فرّط في أمر مدينة صور؛ لأنه بعد كل حصار أو فتح كان يطلق الأسرى ويعطيهم الأمان فيجتمع هؤلاء في مدينة صور التي لم يستطع فتحها بعدئذ، ثم يعود ليلمز منه أنه لم يستطع المصابرة طويلاً أمام صور: «وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه»[٢] «ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين»[٣].

هل صحيح أن صلاح الدين أهمل مدينة صور وترك الفرنجة يتجمعون بها؟ هذا ما سنحاول الكشف عنه.

أولاً:

لا بد من التنويه أن ابن الأثير عنده نوع من التحامل على صلاح الدين، وسبب ذلك – والله أعلم – أن ابن الأثير يميل إلى أسرة آل زنكي ويعظمهم كثيراً، ويعتبر أن صلاح الدين قد أخذ ملك الشام ومصر منهم، ولذلك نراه يغمز من صلاح الدين إذا جاءت المناسبة، فعندما ذكر أنه بعد فتح بيروت وجبيل كان أمر

---

(١) قام الشعب الفلسطيني في السنوات الأخيرة بواجبه تجاه اليهود، وصمد صموداً عجيباً، ولكن كل الدول لا تريد حديث الجهاد، ولذلك سيكون الصراع طويلاً مع اليهود وستكون العاقبة للمسلمين بإذن الله.

(٢) (٣) الكامل ١١/ ٥٥٥.

عسقلان والقدس أهم شيء عند صلاح الدين لأنهما على طريق مصر، ولِمَا في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم[1].

ويروي ابن الأثير عمن يثق به أنه رأى صلاح الدين يودع ضيفه معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان (من ملوك الدولة السلجوقية في بلاد الأناضول) فلما أراد صلاح الدين الركوب عضده معز الدين وأركبه، وسوّى ثيابه علاء الدين بن عز الدين من آل زنكي، ويعلق الراوي: فقلت: ما تبالي يا ابن أيوب ايّ موتة تموت يركِّبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي!!»[2] فكأن ابن الأثير وراويه استكثرا أن يصل واحد من بني أيوب إلى هذه المنزلة.

وشيء آخر هو أننا لم نلاحظ أن ابن الأثير ينتقد الملوك الظلمة الفاسقين، ولا يذكر أخطاءهم خاصة ملوك الموصل أو السلاجقة.

ثانياً:

إن وصف صلاح الدين بأنه كان يطلق كل من يحصره، غير دقيق، فإنه كان يقتل المحاربين وخاصة (الفداوية) و(الأسبارتية) ولكنه عندما يحاصر مدينة ما ويطلب أهلها الأمان على أن يفتحوا له الحصون يعطيهم ويفي لهم، وابن الأثير نفسه يقول فيه: «وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار فيه فيعفو ويصفح»[3] فهذه طبيعة صلاح الدين، يحب العفو والصفح، فإذا استسلمت مدينة دون قتال وقتلى فهو يرحب بهذا، وأما أنه كان ضجراً فإذا ثبتت مدينة أمامه تركها، فهذا أيضاً كلام غير دقيق؛ فقد حاصر عكا وثبت أمامها ستة وثلاثين شهراً ما ضجر

---

(١) الكامل ١١/٥٤٥.
(٢) الكامل ١٢/٧٦.
(٣) الكامل ١٢/٢٥.

منها ولا تركها، وإنما ترك صور لما رأى أنها محصنة، وأنه لا فائدة من مطاولتها في ظروفه التي هو فيها[1].

ثالثاً:

لو أن نقد ابن الأثير كان للنواحي العسكرية البحتة، فهذا لاغبار عليه، ولكل وجهة نظر، مثل قوله: «إن صوراً كانت فارغة ولكن صلاح الدين خاف أن يأخذها ولا يقدر على حفظها فلو بدأ بها قبل غيرها لأخذها بغير مشقة» فهذا كلام صحيح، ولو أن صلاح الدين كان مجتهداً في عدم محاصرتها في البداية.

* * *

(١) بمناسبة الحديث عن صور ذكر ابن الأثير حادثة طريفة عن سبب تقوّي أهل صور وصمودهم أمام صلاح الدين فقال: إن أحد أفراد الإفرنج وقادتهم (يسميه ابن الأثير: المركيز، والظاهر أن هذا لقب) كان قد وصل إلى ميناء عكا بمركب له وهو لا يعلم انهزام الفرنجة وتملك صلاح الدين لها، فلما قرب من المدينة ولم يرَ أي تحرك لاستقباله شك في الأمر ثم إن الملك الأفضل (ابن صلاح الدين) أرسل إليه رجلاً ليتعرف عليه فسأله المركيز عن الأمر فأخبره المسلم بهزيمة الإفرنج في عكا وأن صور بيدهم وعسقلان وغيرها وحكى له الأمر على وجهه (لم يكذب عليه) فبدأ هذا الإفرنجي يسوّف ويماطل في دخول عكا وهو ينتظر هبوب الريح حتى يقلع باتجاه صور فلما جاء الريح أقلع، ولم يستطع المسلمون اللحاق به وهو الذي قاد أهل صور وقوّى المدينة بأمواله. انظر: الكامل ١١ / ٥٤٤ وتأمل طيبة قلوب المسلمين!!

(٤)

التجديد عند هذين الملكين

بعد أن استعرضنا بعض أعمال هذه الملكين المسلمَيْن لا بد أن نقرر هنا أن ما قاما به يعتبر تجديداً في الإسلام في كثير من النواحي. وإذا كان بعض العلماء قبلهم أو بعدهم يوصف بالتجديد فإنه لم يجدد كل الأمور فالغالب أن الحكم يبقى على ما هو عليه ولكن العالِمَ يعيد للعقيدة صفاءها ويضع الناس على الطريق الصحيح.

ونحن هنا بإزاء تجديد في نواح يمكن إيجازها فيما يلي:

أولاً:

الحديث عن الجهاد وممارسته عملياً من قبل السلطان والوزراء والقواد وكافة الشعب وهذا شيء قد ترك من مدة طويلة، فماتت الأمة واستنامت للأعداء فتسلط عليها الباطنيون من الداخل وبدأ الروم يناوشونها من الخارج، ثم جاء الصليبيون فاحتلوا أراضيها. وقد مر معنا شغف نور الدين وصلاح الدين بالجهاد والاستعداد له من تدريب وآلات عسكرية وتحصين الحدود والقلاع، وحث الناس عليه وشهود العلماء والوعاظ المعارك معهم، ومعلوم أن الجهاد يوقظ الأمة ويفجر الطاقات، ويعزها بعد ذل، ويكفي للتدليل على ذلك أن صلاح الدين بعد فتح القدس وكل مدن فلسطين دافع عن عكا ستة وثلاثين شهراً كان يعيش خلالها في خيمة وليس في مقر، ويركب فرسه كل يوم لمناوشة الأعداء.

ثانياً :

إشاعة روح العدل : وقد كان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم، والملوك يسمعون لهم بذلك إرضاء لهم وحتى تبقى لهم طاعتهم . بينما نرى أنه في عهد نور الدين محمود يتمنى القائد أسد الدين شيركوه أن ينزل عن كل أمواله ولا يجلس في المحكمة أمام نور الدين .

ثالثاً :

عدم التصرف بأموال الدولة : وهذا شيء يختلف عن كل الدول السابقة، فقد كان نور الدين إذا جاءه هدايا يضعها في خزينة الدولة ولما طلبت زوجته نفقه لم يعطها من خزينة الدولة بل أعطاها دكاكين له في حمص، وصلاح الدين لم يترك إلا ديناراً وأربعين درهماً، وهذا شيء لم يُسْمَع به مِن بعدِ الخلفاء الراشدين وعمر ابن عبد العزيز!

رابعاً :

العمل بالسياسة : كان الأمراء قبلهم وملوك المدن يتحاكمون في بعض أمورهم إلى أعراف سياسية وليس إلى الشرع وبعض الناس لا يذهب إلى القاضي الشرعي بل يذهب إلى الشرطة فتحكم له بمقتضى قوانين عندهم . يقول المؤرخ أبو شامة : « وكان نور الدين لما صارت له الموصل أمر قائد شرطتها أن لا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي به، ثم يعقب هذا المؤرخ نقلاً عن القاضي يوسف بن رافع أن نور الدين كان لا يعمل بالسياسة »[1] ، ويقول عنه أيضاً : « لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً، بل أطلقها رحمه الله[2] أي أنه رفع الظلمَ عن الناس ومَنَعَ فَرْضَ أشياء ليست في شرع الله .

---

(١) الروضتين ١ / ١٣ .

(٢) الروضتين ١ / ٦ .

خامساً :

تقريب العلماء : وحبهم واستشارتهم وإعطاؤهم المكانة اللائقة بهم، وإحياء المدارس والعلم وحضور السلطان مجالس العلم، بل إن السلطان صلاح الدين كان يذهب إلى الإسكندرية مصطحباً معه ولديه علياً وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفي . وترقّى العالم كمال الدين الشهرزوري إلى مرتبة الوزارة ومن مستشاري صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلي، ووزيره القاضي الفاضل كان من أكابر الكتاب محباً للعلم وأهله .

* * *

(٥)

لماذا لم يتابع التجديد بعده؟

كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدين محمود من حبه للجهاد والعلم وتقريب العلماء وإشاعة العدل، وسرى هذا إلى الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن هذا التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة، إلى اتجاه عام للدولة، لا ينقطع بوفاة القائد أو المؤسس، فالواقع أنه بوفاة صلاح الدين ومجيء أولاده الثلاثة الذين اقتسموا البلاد ما بين مصر ودمشق وحلب، تراجعت الدولة، وبدأ التناحر ما بين الإخوة أنفسهم على ما عهد في مثل هذه الأحوال. وعلى العكس من هذا تكون المؤسسات كالخلافة الشورية وأهل الحل والعقد، والقضاء، فعندما يغيب القائد لا تتقزم الدولة وتضعف؛ لأن هناك مؤسسات راسخة تختار من يصلح لهذا المنصب ضمن الشروط المطلوبة[١] يقول ابن كثير: «وكان الأفضل (ابن صلاح الدين) بعد موت أبيه قد أساء التدبير، فأبعد أمراء أبيه وقرب الأجانب وأقبل على اللهو»[٢].

بعد أولاد صلاح الدين جاء عمهم العادل، واستطاع أولاد العادل الذين ورثوا الملك الأيوبي مقاومة الصليبيين بعض الشيء، وكان للملك عيسى ابن العادل جهاد

---

(١) وفي عصرنا الآن نجد بعض الدول العربية تعين الرؤساء ورؤساء الوزارات ولكن الدولة لا تتغير ولا تنهار، ورغم تحفظاتنا على النظام الديمقراطي الغربي وما فيه من خلل فإن الغربيين أقاموا أمورهم على المؤسسات، وليس على أفراد.

(٢) البداية ١٣ / ١٠.

مع الصليبيين وكان عالماً يحب العلماء ويقول: أنا على عقيدة **الطحاوي** وقد ساعد أخاه الكامل في موقعة دمياط مع الفرنجة ويقول: «واقعة دمياط **أدَّخرُها عند الله** تعالى وأرجو أن يرحمني بها»[1]، ولكن الصليبيين تكالبوا مرة ثانية **وطلبوا أن يرد** إليهم ما كان أخذه صلاح الدين فوقعت المصالحة بينهم وبين أولاد **العادل على أن** يتسلموا القدس فقط. وفي سنة ٦٣٨هـ سلم الصالح إسماعيل **ابن العادل** حصن شقيف لصاحب صيدا الإفرنجي، فأنكر عليه الشيخ العز بن عبد السلام **وابن** الحاجب فاعتقلهما ثم أطلقهما فذهب ابن عبد السلام إلى مصر[2]، ورجعت الأنانيات البغيضة فعندما اختلف إسماعيل هذا مع الصالح أيوب ابن الكامل راسل الصالح أيوب الخوارزمية لحصار دمشق!! ولما عجز الأحفاد الذين تربوا في القصور والنعيم عن المقاومة استلم الأمر منهم المماليك الذين صدوا غارات الصليبيين والتتار.

انتهت الدولة الأيوبية وجاء المماليك وكان أثر التجديد الجهادي لا يزال سارياً؛ فاستطاع المماليك إيقاع الهزيمة بالتتار في (عين جالوت) بقيادة الأمير (قطز) وفي عهد الظاهر بيبرس تساقطت كثير من المعاقل في الشام ومصر، ففي عام ٦٦٣هـ فتح الظاهر قيسارية وأرسوف وقتل من بها من الفرنجة، ثم فتح صفد مرة ثانية وأخذ يافا وإنطاكية، وفي سنة ٦٦٩هـ استرجع عكا. قال عنه ابن كثير: «له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، فتح المدن والحصون ولم يَدَعْ مع الإسماعيلية شيئاً من الحصون، وكان شهماً شجاعاً عالي الهمة، أوقع بالروم والمغول بأساً لم يسمع بمثله من دهور، وكان مقتصداً في ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه، وأبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد، توفي ٦٧٦هـ»[3]. ولكن الرحيل النهائي للصليبيين كان في عهد الأشرف بن قلاوون حين استسلمت صور وصيدا في عام ٦٩٠هـ.

---

(١) البداية ١٣/١٣١.

(٢) البداية ١٣/١٦٦.

(٣) البداية والنهاية ١٣/٢٩٠.

قَبِل المسلمون بالمماليك؛ لأنهم كانوا رجالاً شجعاناً تربوا تربية عسكرية محضة، فحموا البلاد الإسلامية من الأعداء المتربصين، ولكنهم لم ينهضوا بالأمة من الناحية العلمية والحضارية وكأني بالمسلمين خافوا أن يُجْتَثُّوا من أصلهم فقدموا أخف الضررين، ولم يكن لهؤلاء المماليك قاعدة سياسية واضحة تجعل حكوماتهم مستقرة، ويفكرون بالحضارة، وهكذا لم يستمر التجديد بسبب الخلل الداخلي عند المسلمين وهو عدم وجود الشورى، وإيصاد باب الاجتهاد عند العلماء.

إن غياب مؤسسة (الشورى) جعل مؤرخاً مثل ابن خلدون يضع قانوناً رآه حتمياً وهو أن الدول لا تعيش أكثر من ثلاثة أجيال؛ لأن الجيل الثالث أو الرابع يكون قد تفسخ. وتبدأ الدولة بالانهيار، وإذا كانت بعض الدول عاشت أكثر من هذا فهي عيشة الموت، تجرجر نفسها بسبب قوة الدفعة الأولى؛ ونظرية ابن خلدون تنطبق على هذا النوع من الدول، أما إذا كانت الدولة تقوم على المؤسسات مثل: الشورى، القضاء المستقل، المؤسسات العلمية... فعندئذ يختلف الأمر.

إن دولة الخلافة الراشدة قامت على الشورى ولكنها لم تنظمها وتقننها؛ لأن الأمور يومها كانت بسيطة، ولكن المشكلة جاءت بعدئذ؛ إذ لم تنظم الشورى ولم تمارس بالشكل الصحيح.

وقضية أخرى وهي إقفال باب الاجتهاد من قبل العلماء مما جعل بعض الحكام لا يجدون حلاً لمشاكل تعترضهم في السياسة والمعاملات والعلاقات الدولية. فربما لجأ البعض إلى الأعراف أو إلى ما كانوا يسمونه (السياسة) مع أنه لا يجوز أن تخلو الأمة الإسلامية من مجتهدين اجتهاداً مطلقاً يستطيعون إعطاء الحكم الشرعي الصحيح في أي حادثة تطرأ، فهذان السببان كانا من أكبر أسباب عدم استمرار الجهاد، وضعف الأمة الإسلامية بعد القرون المفضلة.

والعاقبة للمتقين

موارد الأمور تشتبه

وفي مصادرها يتضح اليقين

ليس هناك سنة أصدق في وجه الخصوم المتعنتين أو أهل الشكوك المتربصين من سنة أودعها الله في كتابه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ويروى على لسان عيسى عليه السلام أنه عندما سئل : كيف نعرف الكاذبين؟ قال : « من ثمارهم تعرفونهم » ، فإذا الْتبس الأمر على الناس ولم تعد عندهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل عندئذ يقال لهم : انتظروا النتائج ، وسترون مَنْ هم أهل الحق ومَنْ هم أهل الباطل ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] فالعاقبة للمتقين سنة من سنن الله في مصائر الشعوب والأمم التي تنحرف عن منهج ربها وعن منهج فطرتها . « ومن سنن الله في تعارض الحق والباطل أن الحق يعلو والباطل يسفل؛ فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون شيئاً ثابتاً صالحاً تقتضيه طبيعة العمران ، فسنن الوجود مؤيدة لهم »[١] .

إن الملاحظة التاريخية والتأمل في واقع البشرية يؤيد هذا ، فإننا نرى أنه مهما تبجح الشر وانتفش فالحق غالبه بإذن الله ولو بعد حين ، وللباطل جولات ثم يذهب هباء ، والنافع هو الأبقى . وهذا على مستوى الفرد والمجتمع وعلى مستوى الدول

---

(١) تفسير المنار ٥ / ٢٦٠ .

والحضارات، وإذا لم يكن هذا في الماضي فسيكون في المستقبل: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وإذا لم يكن في الدنيا فسيكون في الآخرة ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

فكم من طاغوت هوى، وكم من دولة ظلم ذهبت كأن لم تكن، وكم حاول أعداء الإسلام الكيد له من الداخل ومن الخارج، والنتيجة أنه خرج منصوراً، وكم ثورة قامت للباطنيين باسم الخرمية والبابكية وثورة الزنج أو الفاطمية ثم طويت في خضم بحر أهل السنة، وكانوا كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ..﴾ [المائدة: ٦٤].

وجاء التتار والصليبيون، واستقروا فترة طويلة، ثم عادت الأمور إلى نصابها لقد ظهر لبادي الرأي أن الرافضة والباطنيين سيطروا على العالم الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال ورجع الناس إلى السنة.

وفي العصر الحديث ظن الشيوعيون أنهم يملكون نظرية متكاملة في فهم التاريخ وتطور المجتمعات البشرية، وفي أقل من عمر إنسان تنهار الشيوعية وكأنها أمس الدابر.

وطواغيت العصر الحديث الذين حكموا كثيراً من أقطار المسلمين تفرعنوا، وعتوا حتى إذا جاءت ساعتهم لم يترحم عليهم أحد واستراحت منهم البلاد والعباد، أليست قاعدة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هي الميزان.

وعلى المستوى الفردي يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: بيننا وبين أهل البدع الجنائز، يعني رحمه الله أن العالم الرباني المتبع للسنة سيحترمه الناس ويُجلُّونه، ويلقي الله في قلوب الخلق محبته، فيمشون في جنازته، وأما أهل البدع فرغم شغبهم ومحاولتهم للتشويش واستعانتهم بالحكام الظلمة، فهم في النهاية غير محبوبين ولا مرغوبين، فهل في الناس اليوم من يذكر أحمد بن أبي دؤاد أو النظّام والعلاَّف من أهل الاعتزال القديم؟ أو هل يذكرون غلاة علماء الكلام والصوفية على أنهم هداة للأمة بينما نرى أنه كلما كان العالم أقرب إلى السنة كلما زاده قبولاً واحتراماً؟ إن الذين شغبوا على ابن تيمية من أهل البدع والأهواء لا أحد يقرأ لهم، ولكن كتب ابن تيمية منتشرة في الآفاق منذ القرن الثامن وحتى الآن.

وفي محاولات التفتيش عن دروس التاريخ لم نجد ماضياً أشبه بحاضر ولا أكثر عبرة من مثل ما حدث في الحقبة التي درسناها. لقد اكفهر الجو في القرن الرابع حتى ظن الناس أن لا فائدة من محاولات التغيير، وسيطر أهل البدع، وتشبث الحكام بمواقعهم ولو على حساب الأوطان، وبلغ التفرق والتشتت مداه، ثم جاء الفرج بعد أن تمهدت له الأسباب من العودة إلى السنة وانتشار معاهد العلم ومجيء قواد وأمراء فيهم دين وشجاعة، ومع ملابسات وظروف الحاضر وتشابك العلاقات الدولية بشكل لم يسبق له مثيل، فإن مشكلة المسلمين ستبقى بحاجة إلى تيار كبير يقوده علماء حكماء، ستبقى بحاجة إلى التقاء العلم والسياسة: العلماء والأمراء، كما التقوا في شخص نور الدين محمود وصلاح الدين، وأظن أن الدعاة أصبحوا على قناعة بأن التغيير لا يأتي إلا بالسير مع سنن الله التي أودعها في كتابه قال تعالى: ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴿٧٦﴾ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧] أو سنة ذكرها رسول الله ﷺ من الحكمة التي أنزلت عليه، «ولا يأتي التغيير إلا بأن يقوم المسلمون باتقاء أسباب الضعف

والخزلان، كاليأس من روح الله، والتنازع والفساد في الأرض، ويتلبسون بضدها وبسائر ما تقوى به الأمم، من الأخلاق والأعمال، أعلاها الاستعانة بالله، والصبر على المكاره مهما عظمت»[1] وكل هذا يحتاج إلى فقه دقيق.

* * *

---

(١) تفسير المنار ٩ / ٥٧٨.

المحتوى

الموضـــــــــوع	الصفحــة

الفصل الثالث
بشائر العودة
٨١ - ١٠٠

الفصل الرابع
الجهاد يوحد الأمة
١٠١ - ١٣٦